وَقَفَـــــات

مَعَ بَعْضِ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ

فِي شَهْرِ البَرَكَات

جَمَعَها

أبو أنس منصور بن محمد الزكري

قدَّم له

الشيخ عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري

حفظه الله تعالى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

وقفـــــــات

مع بعض الآيات القرآنية

في شهر البركات

مقدمة الشيخ
عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فقد طالعت رسالة أخينا الفاضل المبارك أبي أنس منصور بن محمد الزكري- حفظه الله- بعنوان: "**وقفات مع بعض الآيات القرآنية في شهر البركات**" فوجدتها رسالةً طيبةً نافعةً مفيدةً، فأسأل الله أن يجزيه خيرًا، وينفع به.

كتبه: أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري

في ٤ جمادى الآخرة ١٤٤٤هـ

مقدمة المؤلف

الحمدُ للهِ الكريمِ الرحمن، الواحد الدَّيان، الذي أكرم عباده بإنزال هذا القرآن، فجعله لهم هداية ونورًا وتبيان، وشفاءً وحصنًا من أعينِ الإنسِ والجانِّ، ومرشدًا وقائدًا لهم إلى الجنان، وزاجرًا لهم من الشرور والطغيان، وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه النبيَّ العدنان ﷺ، وعلى آله وصحابته الذي نالوا من ربهم الرضوان، ومن تبعهم على ذلك بإحسان، وبعد:

فلما خصَّ الله تعالى شهرَ رمضان المبارك من بين سائر الشهور بإنزال القرآن، والله يخلق ما يشاء ويختار، فقد قصدتُ بعض الآيات القرآنية من هذا الكتاب، ونقلت بعض تفسيراتها من بعض كتب التفسير، كتفسير الطبري، وابن كثير، والقرطبي، والبغوي، والشوكاني، والسَّعْدِي، والعثيمين رحم الله الجميع، وقد أشرت في كثير من مواضع الكتاب إلى التفسير المنقول منه وجعلته بين قوسين كقولي: (طبري) أي : هذا التفسير منقول من تفسير ابن جرير الطبري رحمه الله، وهكذا...، وكان إلقائي لها بعد العصر ليست مرتبة على سورة المصحف، ثم بدا لي عند كتابتها أن أجعلها مرتبة بحسب سِوَرِ المصحف، إلا في موضعين:

الأول: في الوقفة الثانية عشرة آية التوبة (٦٠) بعد آية البقرة (٢٦٧-٢٦٨) لمناسبة ذكر مصارف الزكاة.

والثاني: في الوقفة الثالثة والعشرون آية آل عمران (١٢٣) مع آية الحديد (٢١) للتناسب بينهما.

ونسألُ اللهَ تعالى أن يجعل في ذلك الخير والبركة، وأن ينفعنا والمسلمين بذلك، وأنا ليس لي من ذلك إلا الجمع فقط، إلا في مواضعَ قليلةٍ من الكتاب، وقد حاولت

الاختصار في تفسيرها لتكون وقفات يسيرة في هذا الشهر المبارك؛ نظرًا لحال الناس، وإلَّا فالآيات لها تفاسير وأحكام وفوائد كثيرة تشد لها الرِّحال، ولا يستغنى عنها، فمن أرادها فليرجع إلى أصول تلك التفاسير، وإلى غيرها من كتب أهل العلم، نسأل الله أن يفقهنا في الدين، وأن يتوفانا مسلمين، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتب: أبو أنس منصور بن محمد الزكري

عفا الله عنه

في مسجد السُّنة بالنزيهة–وادي بني خولان جبل حبشي –تعز– اليمن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الوقفة الأولى: مع سورة الفاتحة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ
أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة:١-٧].

اعلم-رَحِمكَ اللهُ-أنَّ المقصودَ الأعظم مِنَ الصلاةِ ورُوحَها هو حضورُ القلبِ فيها، وإلَّا صارت كالجسدِ بلا رُوحٍ، وفَهْمُكَ لآياتِ سورة الفاتحة وحضورُ قَلْبِكَ معها هو لبُّ الصَّلاة، لأنَّ سورة الفاتحة هي الصلاة، لما جاء في مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»

ولا تصحُّ الصلاةُ بدون قراءة الفاتحة، لمنْ كان يحفظها، لقول النبيﷺ: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**» متفق عليه عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهي أعظم سورة في القرآن، لما روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى

ﷺ، قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُصَلِّي، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ، فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي**؟» فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: " أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤] ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ**» فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ فَذَكَّرْتُهُ، فَقَالَ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ» هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**».

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ القُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**».

رواه النسائي.

ومن أسماء هذه السورة: الفاتحة، أمُّ الكتاب، أمُّ القرآن، السَّبع المثاني، الصَّلاة، الرُّقية، الشِّفاء، الكافية، وكثرة أسماءِ الشيءِ تدلُّ على عظمته.

وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثةَ عشرَ حرفًا.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اتفق أهل العلم أنها جزء آية من سورة النمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة النمل: ٣٠].

واختلفوا هل هي آية من كل سورة؟

والصحيح: أنَّها آية مستقلةٌ نزلت للفصل بين السِّور، وقد كان النبي ﷺ يعرف السُّورة من السورة بنزول البسملة.

ومعنى البَسملة: أَفْعَلُ هذا الشيء مستعينًا بالله تعالى، متبركًا باسمه عزَّ وجل.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الحمد: هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛

الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بدَّ مِن قَيْدٍ وهو "المحبة، والتعظيم"؛ قال أهل العلم: "لأنَّ مُجَرَدَ وصْفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حَمْدًا؛ وإنَّما يسمى مَدْحًا".

واللام في (لِلَّهِ): للاختصاص، والاستحقاق؛ و "الله" اسمَ ربنا عزّ وجلّ؛ لا يُسمَّى به غيره، ومعناه: المَأْلُوه. أي المعبودُ حُبًّا، وتعظيمًا.

وقوله: (رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ): "الرَّب": هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: **الخلق، والملك، والتدبير**؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و{العالمين}: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العَالَمَ؛ وُصِفُوا بذلك؛ لأنَّهم عَلَمٌ على خالقهم سبحانه وتعالى، ففي كلِّ شيءٍ من المخلوقات آيةٌ تدلُّ على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

وقوله: (ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ): {الرحمن} هو ذو الرحمة الواسعة، و{الرحيم} هو ذو الرحمة الواصلة.

وقوله: (مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ): (مالك) صفة لـ{الله}، و{يوم الدِّين} هو يوم القيامة؛ و{الدِّين} هنا بمعنى الجزاء، يعني أنه سبحانه وتعالى مالكٌ لذلك اليوم الذي يُجازى فيه الخلائق، فلا مالكَ غيره في ذلك اليوم، و "الدِّين" تارة يراد به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين} [الكافرون: ٦]، ويقال: "**كما تُدِينُ تُدَانُ**"، أي كما تعمل تُجازى.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أيْ لا نعبدُ إلا إيَّاك، أي نتذللُ لك أكملَ ذلٍّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلًّا لله عزّ وجلّ: يسجد على التراب؛ تمتلئ جبهته من التراب، كل هذا ذُلًّا لله، ولو أنَّ إنسانًا قال: "أنا أعطيك الدنيا كلَّها واسجدْ لي" ما وافق المؤمن أبدًا؛ لأنَّ هذا الذُّل لله عزّ وجلّ وحده، {وإيَّاك نستعينُ} أي ولا نستعينُ إلا إيَّاك على العبادة، وغيرها، و"الاستعانةُ": **طَلَبُ العَون**، والله سبحانه وتعالى يجمع بين العبادة، والاستعانة، أو التَّوكل في مواطنُ عِدَّة في القرآن الكريم؛ لأنّه لا قيام بالعبادة على الوجه الأكمل إلا بمعونة الله، والتفويض إليه، والتوكل عليه. (عثيمين)

وقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: أي وَفِّقنا وأَلهمنا لسلوك الطريق الواضح الذي لا اعْوجاجَ فيه الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو الطريقُ الذي وَضَّحَهُ النَّبيُّ ﷺ.

وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهو طريق الذين أنعمت عليهم من النبيِّن والصديقين والشهداءِ والصالحين، وحسن أولئك رَفِيقًا.

وقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: {غير المغضوب عليهم}: هم اليهود، وكلُّ من عَلِمَ بالحقِّ ولم يعملْ به، {ولا الضَّالين}: هم النَّصارى قبل بعثة النَّبي ﷺ، وكلُّ مَن عَمِلَ بغيرِ الحقِّ جاهلاً به، لهذا شُرِعَ للمصلي أن يُؤَمِّنَ على هذا الدعاء العظيم، وفَّقَنَا الله وإيَّاكم للخير والهدى، وجنَّبنا طُرُقَ الغَيِّ والرَّدى.

الوقفة الثانية

مع قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

قال الإمام الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: ويعني بقوله:«كُتِبَ عليكم الصيام»، فُرِضَ عليكم الصِّيام.

وقال الإمامُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولُ تعالى مخاطبًا للمؤمنين مِن هذه الأُمَّة وآمرًا لهم بالصِّيام، وهو: الإمساكُ عن الطَّعام والشَّراب والوِقاعِ بنيَّةٍ خالصةٍ لله عزَّ وجل، لما فيه من زكاةِ النفس وطهارتِها وتنقيتِها مِنَ الأخلاطِ الرديئةِ والأخلاقِ الرذيلةِ. وذكر أنه كما أوجبه عليهم، فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيهم أسوة، وَلْيَجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مِمَّا فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [سورة المائدة:٤٨].

ولهذا قال هاهنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

لأنَّ الصَّوم فيه تزكيةٌ للبدَنِ وتضييقٌ لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ**

بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»، ثم بَيَّن مقدار الصوم، وأنَّه ليس في كل يوم، لئلا يشقّ على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيامٍ معدوداتٍ. اهـ

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: {كما كُتِبَ}؛ «ما» مصدرية؛ والكاف حرفُ جَرٍّ، وتفيد التشبيه، وهو تشبيهٌ للكتابةِ بالكتابةِ، وليس المكتوب بالمكتوب، والتشبيه بالفعل دون المفعول أمرٌ مُطَّرد، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»، التشبيهُ هنا للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي؛ لأنَّ الكاف دخلت على الفعل الذي يُؤَوَّل إلى مصدر.

قوله تعالى: {على الذين من قبلكم} أي مِنَ الأُمَمِ السابقة، يعمُّ اليهود والنَّصارى، ومن قبلهم؛ كلُّهم كُتِبَ عليهم الصيام؛ ولكنَّه لا يلزم أن يكونَ كصيامنا في الوقت، والمدة.

وهذا التشبيه فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: التسلية لهذه الأمة حتى لا يقال: كلفنا بهذا العمل الشاق دون غيرنا؛ لقوله تعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} [الزخرف: ٣٩] يعني لن يخفف عنكم العذابَ اشتراكُكم فيه، كما هي الحال في الدنيا: فإنَّ الإنسان إذا شاركه غيره في أمر شَاقٍّ هَانَ عليه؛ ولهذا قالت الخَنْسَاء ترثي أخاها صخرًا:

وَلَولَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَولِي ... عَلَى إِخْوَانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِيْ وَلَكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنهُ بالتَّأَسِي

الفائدة الثانية: استكمال هذه الأمة للفضائل التي سبقت إليها الأمم السابقة؛ ولا رَيْبَ أنَّ الصيامَ مِنْ أعظمِ الفضائلِ؛ فالإنسانُ يصبرُ عَنْ طعامِهِ، وشرابِهِ، وشهوتِهِ لله

عز وجل، ومن أجل هذا اختصَّهُ اللهُ لنفسه، فقال تعالى: « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**». [البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)]

قوله تعالى: {لعلكم تتقون}، «لعل» للتعليل؛ ففيها بيان الحكمة من فرضِ الصَّوم، أي تتقون الله عز وجل، هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم، وما جاء سوى ذلك من مصالح بدنية، أو مصالح اجتماعية، فإنَّها تَبَعٌ.

فوائد:

١- مِن فوائد الآية: أهمية الصِّيام؛ لأنَّ الله تعالى صَدَّرَهُ بالنِّداء، وأنَّه مِن مقتضيات الإيمان؛ لأنَّه وجَّهَ الخطابَ إلى المؤمنين، وأنَّ تَرْكَه مُخِلٌّ بالإيمان.

٢- **ومنها**: فرضيَّةُ الصيام؛ لقوله تعالى: {كُتِبَ}.

٣- **ومنها**: فَرْضُ الصيام على من قبلنا من الأمم؛ لقوله تعالى: {كما كتب على الذين من قبلكم}.

٤- **ومنها**: تسليةُ الإنسان بما أُلْزِم به غيره ليهون عليه القيام به؛ لقوله تعالى: {كما كتب على الذين من قبلكم}.

٥- **ومنها**: استكمال هذه الأُمَّة لفضائل مَن سبقها، حيثُ كتب الله عليها ما كتب على من قبلها لتترقى إلى درجة الكمال كما ترقى إليها من سبقها.

٦- **ومنها**: الحكمة في إيجاب الصيام؛ وهي تقوى الله؛ لقوله تعالى: {لعلكم تتقون}.

٧- **ومنها**: فضل التقوى، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصلة إليها؛ لأنَّ الله أوجب الصيام لهذه الغاية، إذًا هذه الغايةُ غايةٌ عظيمةٌ، ويدلُّ على عظمها أنَّها وصيةُ الله

للأولين، والآخرين؛ لقوله تعالى: {ولقد وصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُم وإيَّاكم أَنِ اتَّقوا الله} [النساء: ١٣١].

ومن فوائد الآية: حكمةُ الله سبحانه وتعالى بتنويع العبادات؛ لأَنَّنَا إذا تدبَّرنا العبادات وجدنا أنَّ العبادات متنوعة، **منها**: ما هو مالي محض [يعني خالص]؛ ومنها ما هو بَدَني محض، **ومنها**: ما هو مركبٌ منهما: بدني، ومالي، **ومنها**: ما هو كَفّ [يعني ترك] ؛ ليتمَّ اختبار المُكَلَّف؛ لأنَّ مِن النَّاس من يَهُونُ عليه العمل البدني دون بذل المال، ومنهم من يكون بالعكس، ومن النَّاس من يهون عليه بذل المحبوب، ويَشقُّ عليه الكفّ عن المحبوب، ومنهم من يكون بالعكس، فَمِنْ ثَمَّ نوَّع الله سبحانه وتعالى بحكمته العبادات؛ **فالصوم**: كفٌّ عن المحبوب قد يكون عند بعض الناس أشقُّ من بذْل المحبوب، ومن العجائب في زمننا هذا أنَّ من الناس من يصبر على الصيام، ويعظِّمُه، ولكنْ لا يصبر على الصلاة، ولا يكون في قلبه من تعظيم الصلاة ما في قلبه من تعظيم الصيام، تجده يصوم رمضان، لكن الصلاة لا يصلي إلَّا مِن رمضان إلى رمضان، إنْ صلى في رمضان، وهذا لا شكَّ خطأٌ في التفكير، لكنَّ الصلاة حيث إنَّها تتكررُ كل يوم صار هَيِّنًا على هذا الإنسان تركها، والصوم يكون عنده تركه صعبًا، ولهذا إذا أرادوا ذَمَّ إنسانٍ قالوا: إنَّه لا يصوم، ولا يصلي، يبدئون بالصوم[1].

❁❁❁

[1] انظر لهذه الفوائد "تفسير العلامة العثيمين" رحمه الله عند الآية.

الوقفة الثالثة

مع قول الله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٤].

قوله: (أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ) أي: كُتِبَ عليكم الصِّيام في أيامٍ، **والأيامُ المعدوداتُ**: شهر رمضان. (قرطبي).

وقال ابن كثير رحمه الله: ثُمَّ بَيَّنَ مقدار الصوم، وأنَّه ليس في كلِّ يومٍ، لئلا يشقّ على النفوس فتضعفُ عن حملِهِ وأدائِهِ، بل في أيامٍ معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثُمَّ نسخ ذلك بصوم شهر رمضان

وقوله: (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ): أي ممن كُلِّف صَومُه، أو كان صحيحًا غير مريض، وكان على سَفر، {فعدة من أيام أخر}، يقول: فعليه صوم عِدَّةِ الأيام التي أفطرها في مرضه أو في سفره {من أيام أُخَر}، يعني: من أيام أُخَر غير أيامِ مرضه أو سفره. (طبري)

قوله: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ): أي الصحيح المقيم الذي يُطيقُ الصيام، فقد كان مخيَّرًا بين الصيام وبين الإطعام، إنْ شاءَ صام، وإنْ شاء أفطر، وأطْعَمَ عن كل يوم مسكينًا، فإنْ أطعم أكثر من مسكينٍ عن كل يوم، فهو خير، وإنْ

صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل ابنُ حيَّان، وغيرهُم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }. (ابن كثير).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: أنَّ الصوم أيَّامُهُ قليلة؛ لقوله تعالى: {أيامًا معدودات}.

٢- **ومنها**: التَّعبيرُ بكلماتٍ يكونُ بها تهوين الأمرُ على المخاطبِ؛ لقوله تعالى: {أيامًا معدودات}.

٣- **ومنها**: رحمةُ الله عز وجل بعباده؛ لقلَّةِ الأيَّام التي فرض عليهم صيامَهَا.

٤- **ومنها**: أنَّ المشقةَ تجلب التيسير؛ لقوله تعالى: {فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيامٍ أُخَر}؛ لأنَّ المرض، والسفر مظنَّة المشقَّة.

٥- **ومنها**: جواز الفطر للمرض، ولكن هل المراد مطلق المرض وإن لم يكن في الصوم مشقة عليه؟ أو المراد المرض الذي يشق معه الصوم، أو يتأخر معه البُرْءُ.

الظاهر الثاني، وهو مذهب الجمهور؛ لأنَّه لا وجه لإباحةِ الفطر بمرض لا يشقُّ معه الصَّوم، أو لا يتأخرُ معه البُرْءُ [يعني الشفاء]، **هذا وللمريض حالات ثلاث:**

الأولى: أن لَّا يضره الصوم، ولا يشق عليه؛ فلا رخصة له في الفطر.

الثانية: أنْ يَشُقَّ عليه، ولا يضره؛ فالصوم في حقه مكروه؛ لأنَّه لا ينبغي العدول عن رخصة الله.

الثالثة: أنْ يضرَّهُ الصوم، فالصوم في حقه مُحرَّم؛ لقوله تعالى: {ولا تقتلوا أنفسكم إنَّ اللهَ كان بكم رحيمًا} [النساء: ٢٩].

٦- **ومن فوائد الآية**: جوازُ الفطر في السفر؛ لقوله تعالى: {أو على سفر فعدة من أيام أخر}، **وللمسافر باعتبار صومه في سفره حالات ثلاث:**

الأولى: أنْ لا يكونَ فيه مشقةٌ إطلاقًا، يعني: ليس فيه مشقةٌ تزيدُ على صوم الحَضَر، ففي هذه الحال الصَّوم أفضل، وإنْ أفطر فلا حرج؛ ودليله أن الرسول ﷺ كان يصوم في السَّفر، كما في حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: «**خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ حَتَّى يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَابْنِ رَوَاحَةَ**»[١] ؛ ولأنَّ الصوم في السفر أسرعُ في إبراءِ ذمته؛ ولأنَّه أسهلُ عليه غالبًا لكون النَّاس مشاركين له، وثِقَلِ القضاء غالبًا؛ ولأنَّه يصادف شهر الصوم - وهو رمضان.

الحال الثانية: أنْ يشقَّ عليه الصوم مشقةً غيرَ شديدةٍ، فهنا الأفضل الفطر، والدليل عليه أنَّ النبي ﷺ كان في سفر، فرأى زِحَامًا، ورجلاً قد ظُلِّلَ عليه، فسأل عنه، فقالوا: صائم، فقال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**»[٢]، فنفى النبي ﷺ البرَّ عن الصوم في السفر.

فإن قيل: إنَّ مِن المتقرر في أصول الفقه: **أنَّ العبرةَ بعمومِ اللَّفظِ لَا بِخصوصِ السَّببِ**؛ وهذا يقتضي نفي البِّر عن الصَّوم في السَّفر مُطْلقًا؟

---

[١] البخاري (١٩٤٥)، ومسلم (١١١٩).

[٢] البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما.

فالجواب: أنَّ معنى قولنا: «**العبرةُ بعمومِ اللَّفظِ لَا بخصوصِ السَّببِ**» يعني أنَّ الحكم لا يختص بعين الذي وَرَدَ من أجله، وإنَّما يَعُمُّ من كان مثلُ حاله؛ وقد نصَّ على هذه القاعدة ابنُ دقيق العيد في شرح الحديث في العمدة؛ وهو واضح.

الحال الثالثة: أنْ يشقَّ الصوم على المسافر مشقةً شديدةً؛ فهنا يتعين الفطر؛ ودليله: ما ثبت في الصحيح[1] أنَّ الرَّسول ﷺ كان في سفر، فشُكِيَ إليه أنَّ النَّاس قد شقَّ عليهم الصيام، وإنَّهم ينتظرون ما يفع، فدعا بماءٍ بعد العصر، فشربه، والنَّاس ينظرون، ثُمَّ جِيءَ إلى النَّبيِّ ﷺ، وقيل له: إنَّ بعضَ النَّاس قد صام فقال ﷺ: «**أُولَئِكَ العُصَاةُ! أُولَئِكَ العُصَاةُ!**»، والمعصية لا تكون إلا في فِعْلِ محرم، أو تَرْكِ واجب. اهـ

[1] أي في صحيح مسلم (١١١٤) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما.

الوقفة الرابعة

مع قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٥].

يَمْدَحُ تعالى شهرَ الصِّيامِ من بين سائرِ الشُّهور، بِأَنِ اختاره مِن بَينِهِنَّ لإنزالِ القرآنِ العظيم فيه، وكمَا اختصَّه بذلك، فقد وردَ الحديثُ بأنَّه الشَّهرُ الذي كانتْ الكتبُ الإلهيةُ تَنْزِلُ فيه على الأنبياءِ[1] . (ابن كثير)

والشَّهرُ: هو مدة ما بين الهلالين، وسُمِّيَ بذلك لاشتهاره، ولهذا اختلف العلماء: هل الهلال ما هلّ في الأفق -وإن لم يُرَ؟ أم الهلال ما رئي واشتهر؟ والصواب الثاني.

وسُمِّي رمضان؛ لأنَّ بعضَ أهلِّ المعرفةِ بِلُغَةِ العرب كانَ يزعم أنَّه سُمِّي بذلك لشدَّة الحرِّ الذي كان يكون فيه، حتى تَرْمَض فيه الفِصَال، كما يقال للشهر الذي يُحجّ فيه: (ذو الحجة)، والذي يُرتبع فيه :(ربيع الأول، وربيع الآخر). (العثيمين)

---

[1] وساق الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده إلى واثلة -يعني ابن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أنزلت صُحُف إبراهيم في أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة لسِتٍّ مَضَين من رمضان، والإنجيل لثلاث عَشْرَةَ خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان".
وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أنزل لثنتَي عشرة [ليلة] خلت من رمضان، والإنجيل لثماني عشرة، والباقي كما تقدم. رواه ابن مَردُويه.
أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل -فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } [القدر: ١]. وقال: { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ } [الدخان: ٣]، ثم نزل بعدُ مفرّقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا في تفسيره: وسمي رمضان؛ لأنَّه يرمض الذنوب -أي يحرقها، وقيل: لأنَّه أوَّل ما سُمِّيت الشهور بأسمائها صادف أنَّه في وقت الحرِّ والرمضاء، فَسُمِّي شهر رمضان، وهذا أقرب؛ لأنَّ هذه التسمية كانت قبل الإسلام.

وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ شهر" مرفوع على قوله: "أيامًا معدودات"، هُنَّ شهر رمضان. وجائزٌ أنْ يكون رَفْعُه بمعنى: ذلك شهر رمضان، وبمعنى: كُتِبَ عليكم شهرُ رمضان.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أُنزِلَ القرآنُ جملةً من الذِّكْرِ في ليلةِ أربعٍ وعشرين من رمضان، فجُعل في بيتِ العزَّة في السماء الدُّنيا.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نزلَ القرآنُ في شهر رمضان في ليلة القَدْرِ إلى هذه السماء الدُّنيا جملةً واحدةً، وكان الله يُحْدِثُ لنَبِيِّه ما يشاء، ولا يجيءُ المشركون بِمَثَلٍ يُخاصِمون به، إلَّا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نزل عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا * وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

وقوله: {هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} هذا مدحٌ للقرآن الذي أنزله الله هدًى لقلوب العباد مِمَّن آمنَ به وصدقه واتَّبَعه، {وَبَيِّنَاتٍ} أي: ودلائلُ وحُجَجٌ بينةٌ واضحةٌ جليَّةٌ لِمَن فَهِمَها وتدبَّرها دالةٌ على صحَّةِ ما جاء به من الهدى المنافي للضَّلال، والرُّشد المخالف للغَي، ومفرِّقًا بين الحقِّ والباطل، والحلالِ، والحرامِ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: أي كلُّ النَّاس يهتدون به ـ المؤمن، والكافر ـ الهداية العلمية، أمَّا الهداية

العملية فإنَّه هدًى للمتقين، كما في أوَّل السُّورة؛ فهو للمتقين هدايةٌ عِلْمية، وعَمَلية، وللنَّاس عمومًا فهو هدايةٌ علميةٌ.

وقوله تعالى: {مِنَ الهُدى} صفة لـ {بينات} يعني أنَّها بيناتٌ من الدَّلالةِ والإرشاد.

قوله تعالى: {والفرقان}: مصدر، أو اسم مصدر؛ والمراد أنَّه يفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطل، وبَينَ الخيرِ والشر، وبين النافع والضار، وبين حِزبِ الله، وحزب الشيطان، فُرقانٌ في كلِّ شيءٍ، ولهذا مَن وُفِّقَ لهدايةِ القرآن يَجِدُ الفرقَ العظيمَ في الأمور المشتبهة، وأمَّا مَن في قلبه زيغٌ فَتَشْتَبِهُ عليه الأمور، فلا يفرِّقُ بَينَ الأشياءِ المُفْتَرِقَةِ الواضِحَة.

قوله تعالى: {ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيامٍ أخر}؛ هذه الجملة سَبَقَتْ، لَكِنْ لمَّا ذَكَر سبحانه وتعالى: {فَمَن شهد منكم الشَّهر فليصمه}، وكانت هذه الآية ناسخةً لِمَا قبلَها، قد يظنُّ الظانُّ أنَّه نُسِخَ حتى فِطْرُ المريضِ والمسافرِ؛ فأعادها سبحانه وتعالى تأكيدًا لبيانِ الرُّخصة، وأنَّ الرُّخْصَةَ ـ حتى بعد أن تَعَيَّن الصِّيام ـ باقيةٌ، وهذا من بلاغةِ القرآن؛ وعليه فليستْ هذه الجملةُ من الآية تكرارًا محضًا؛ بل تكرارٌ لفائدة؛ لأنَّه تعالى لو قال: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه} ولم يقل: {ومن كان...} إلخ، لكان ناسخًا عامًا.

قوله تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} تعليل لقوله تعالى: {ومن كان مريضًا أو على سفرٍ} إلخ؛ و{يريد} أي يحبُّ؛ فالإرادةُ شَرعيَّة، **والمعنى**: يحبُّ لكم اليُسْر، وليست الإرادة الكونية، لأنَّ الله سبحانه وتعالى لو أرادَ بنا اليُسْر كونًا ما تعسرتِ الأمورُ على أحدٍ أبدًا.

{ولتكملوا العدة}، الواو عاطفة؛ واللاَّمُ لامُ التعليل؛ لأنَّها مكسورة، ويكون العطف على قوله تعالى: {اليُسْر}؛ يعني يريد الله سبحانه وتعالى بكم اليُسْر، ولا يريدُ بكم العُسْر، ويريد لتكملوا العِدَّة؛ أي: ويريدُ الله منَّا شرعًا أنْ نُكْمِل العِدَّة.

قوله تعالى: {على ما هداكم}، {على}: قيل: إنَّها للتعليل، وليست للاستعلاء، أي تكبروه لهدايتكم. فالإنسانُ إذا صَام رمضان وأكمَلَهُ، فقد مَنَّ الله عليه بهدايتين: هدايةِ العلم، وهدايةِ العمل.

وقوله تعالى: {ولعلكم تشكرون} أي تقومون بشكرِ الله عزَّ وجل؛ و «لعلَّ» هنا للتعليل؛ و{تشكرون} على أمورٍ أربعة:

١- إرادةُ الله بِنَا اليُسر.

٢- عدمُ إرادتِه العُسر.

٣- إكمالُ العِدَّة.

٤- **التكبيرُ على ما هدانا**، هذه الأمورُ كلُّها نِعَمٌ تحتاج مِنَّا أنْ نشكرَ اللهَ -عز وجل- عليها؛ ولهذا قال تعالى: {ولعلكم تشكرون}، و«**الشُّكر**»: هو القيام بطاعة المُنعِم بفعلِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيهِ. اهـ ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الوقفة الخامسة

مع قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٦].

هذا جوابُ سؤالٍ، سَألَ النبيَّ ﷺ بعضُ أصحابِهِ فقالوا: يا رسولَ الله، أقريبٌ ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنَّه تعالى، الرقيبُ الشهيدُ، المطَّلِعُ على السِّرِّ وأخفى، يعلم خائنةَ الأعينِ وما تخفي الصُّدور، فهو قريبٌ أيضًا من داعِيهِ، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، والدُّعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقربُ نوعانِ: قربٌ بِعِلْمِهِ مِن كلِّ خَلقِه، وقربٌ من عابِدِيهِ ودَاعِيهِ بالإجابة والمعونةِ والتوفيق.

فَمَن دعا ربَّه بقلبٍ حاضرٍ، ودعاءٍ مشروعٍ، ولمْ يمنعْ مانعٌ من إجابةِ الدُّعاء، كأكل الحرامِ ونحوه، فإنَّ الله قد وعَدَهُ بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرُشْد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغَي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأنَّ الإيمان باللهِ والاستجابة لأمره، سببٌ لحصول العلم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا}. (السَّعْدِي)

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي ذكره تعالى هذه الآية الَباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العِدّة، بل وعندَ كلِّ فطر. اهـ

قلت: وقد أخبر النبيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ للصائمِ دعوةً لا تردُّ حتى يفطر، لما ثبت في مسند الإمام أحمد، وسُنَنِ الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثَلَاثٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ، الإِمَامُ العَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»**.

فعلى الصَّائم أنْ يستكثرَ من الدعاء، وألَّا يستعجلَ الإجابة، لِمَا ثبت عند أحمد في مسنده عَنْ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدَّثَهُمْ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»**، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: **«اللَّهُ أَكْثَرُ»**.

وفي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ»** قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: **«قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»**.

والله تعالى يَسْتَحْيِي مِن عبده إذا رفع إليه يديه أنْ يردهما خائبتين، لما ثبت عند الترمذي عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»**.

وينبغي أنْ يكون الإنسان حاضرَ القلبِ عند الدعاء، مُوقِنًا بأنَّ الله سيستجيب له، لِمَا ثبت عند أحمد، وغيره عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«الْقُلُوبُ**

أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ».

وليَحْذَرْ المسلم من رفعِ صوتِه بالدعاء سواء في رمضان أو في غيره، لِمَا جاء في الصحيحينِ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَجْهَرُونَ بِالتَّكْبِيرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ»** قَالَ وَأَنَا خَلْفَهُ، وَأَنَا أَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ: **«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»**، فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: « **قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ** ».

وقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ١٨٦﴾: أي أَقْبَلُ عبادةَ مَن عَبَدني، فالدُّعاء بمعنى العبادة، والإجابة بمعنى القبول، أي أنَّك لا تحتاج إلى واسطةٍ بينك وبين الله تعالى في دعائه وعبادته.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ١٨٦﴾ فهذا الحَكْمُ ظاهِرُهُ خَبرٌ عن إجابة كلِّ داعٍ على كلِّ حالٍ، لكنْ قد جاء مَا قيده في موضعٍ آخر، كقوله: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ [سورة الأنعام: ٤١]. فقد يظنُّ من لا بصيرةَ عنده أنَّ هذا من باب النسخ في الأخبار، وليس كذلك، بل هو من باب الإطلاق والتقييد...وقد دعا النَّبيُّ ﷺ بثلاثٍ فأُعطيَ اثنتين، ومُنعَ واحدة.

وقال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: ... أو **أُجِيبُ** دعوةَ الداعي إنْ وافق القضاء، أو **أُجِيبُهُ** إن كانت الإجابة خيرًا له، أو **أجيبُهُ** إن لم يسألْ محالًا.

قوله: (فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي) قال مجاهد: فليطيعوا لي، قال: **الاستجابةُ**: الطَّاعة. وقال بعضهم: معنى «فليستجيبوا لي»: فليدعوني. (طبري)

قوله تعالى: {وليؤمنوا بي} أي وليؤمنوا بأنِّي قريبٌ أجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ، واللام في الفعلين: {فليستجيبوا}؛ و{ليؤمنوا} لام الأمر، ولهذا سُكِّنَتْ بعد حرف العطف.

قوله تعالى: {لعلهم يرشدون}؛ «لعلَّ» للتعليل؛ وكلَّما جاءت «لعلَّ» في كتاب الله فإنَّها للتعليل؛ إذ إنَّ التَّرجِّي لا يكون إلا فيمن احتاج، ويُؤَمِّلُ كشف ما نزل به عن قُرْبٍ، أمَّا الربُّ عزَّ وجل فإنَّه يستحيل في حقه هذا. (عثيمين)

اللَّهمَّ اجعلْ لنا مِن كلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومِن كلِّ ضِيق مَخرجًا، ومِن كلِّ عُسرٍ يسرًا ومن كلِّ بلاءٍ عافية، والحمد لله ربِّ العالمين.

الوقفة السادسة

مع قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٧].

تقدَّمَتْ بعضُ الأحكامِ التي تكون في نهار مضان، وفي هذه الآية بيان من ربنا تبارك وتعالى لبعض الأحكام التي تكون في ليل رمضان.

وفي هذه الآية رُخْصةٌ من الله تعالى للمسلمين، ورَفْعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنَّه كان إذا أفطر أحدهم إنَّما يَحِلُّ له الأكلُ والشربُ والجماعُ إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حَرُمَ عليه الطعامُ والشرابُ والجماعُ إلى الليلة القابلة. فوجدوا مِن ذلك مَشَقةً كبيرة. (ابن كثير)

فقوله: (أُحِلَّ لَكُمْ) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: لفظ "**أُحِلَّ**" يقتضي أنه كان محرَّمًا قبلَ ذلك ثم نُسِخَ.

وروى أبو داود عن ابْنِ أَبِي لَيْلَى قال: وَحَدَّثَنَا أَصْحَابُنَا، قَالَ: وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ لَمْ يَأْكُلْ حَتَّى يُصْبِحَ، قَالَ: " فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَرَادَ امْرَأَتَهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ نِمْتُ فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُّ فَأَتَاهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَرَادَ الطَّعَامَ فَقَالُوا:

حَتَّى نُسَخِّنَ لَكَ شَيْئًا، فَنَامَ " فَلَمَّا أَصْبَحُوا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: ١٨٧]

[قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقول ابن أبي ليلي: حدثنا أصحابنا يريد به أصحاب النبي ﷺ. انظر صحيح أبي داود ص (٤٢٦)].

وفي صحيح البخاري (١٩١٥) عَنِ البَرَاءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلاَ يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ **قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ** كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: ١٨٧] فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ} [البقرة: ١٨٧]. (قرطبي)

وقوله تعالى: (ٱلرَّفَثُ) كنايةٌ عنِ الجماعِ؛ لأنَّ الله عزَّ وجل كريمٌ يُكني، قاله ابن عباسٍ والسُّدِّي.

وقال الزَّجاج: (ٱلرَّفَثُ) كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ ما يريد الرجل من امرأته، وقاله الأزهري أيضًا. وقال ابن عَرَفة: الرَّفثُ: ههنا الجماع.

وقوله تعالى: (هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ): قيل: هنَّ سكنٌ لكم، وأنتم

سكن لهنَّ، كما قال جل ثناؤه:(جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا) [سورة الفرقان: ٤٧]، يعني بذلك سكنًا تسكنون فيه. وكذلك زوجةُ الرَّجُل سَكنُهُ يسكنُ إليها.

وقيل: سِتْرٌ لكم، وأنتم سترٌ لهن، فكما أنَّ الثوب يحصل به السِّتر، فكذلك الزواج يحصل به السِّتر والإعفاف.

وقوله: (عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ) قال الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: كانت خيانتُهم أنفسَهم التي ذكرها الله في شيئين، أحدهما: جماع النساء، والآخر: المَطعم والمشربُ في الوقت الذي كانَ حرامًا ذلك عليهم.

قوله تعالى: (فَٱلۡـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ)، هذا فيه نسخٌ للحكم المتقدم، وهو تحريم الجماعِ في ليل رمضان من بعد العشاء أو حصول النَّوم قبل ذلك.

وقولة: {وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ} أي: أنوُوا في مباشرتكم لزوجاتِكم التقربَ إلى الله تعالى، والمقصود الأعظم من الوطء، وهو: حصولُ الذُّريَّةِ، وإعفافُ فرْجِهِ وفَرْجِ زوجته، وحصولُ مقاصد النِّكاح.

ومِمَّا كَتَب اللهُ لكم: ليلةَ القَدْر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللَّذة عنها وتضيعوها، فاللَّذةُ مُدْرَكةٌ، وليلة القدر إذا فاتت لم تُدْرَك.

قوله تعالى: (وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ) أي: وأُحِلَّ لكم الأكلُ والشُّربُ

في ليل رمضان حتى يَتَبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسود من الفجر، أي يَتَبيَّن لكم طلوع الفجر الصَّادق يقينًا.

وقوله: (ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ): أي أَمْسِكوا عنِ الطعام والشَّراب والجماع وسائر المفطرات من طلوع الفجر الصَّادق إلى الليل ويبدأ مِن تحقُّقِ غروب الشَّمس.

ويستحب تعجيله عند تحقق غروب الشمس، لحديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»**. متفق عليه

ولهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ قَالَ: «**يَا فُلَانُ، انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا، قَالَ: «**انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا**» قَالَ: فَنَزَلَ فَجَدَحَ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَرِبَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: بِيَدِهِ «**إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ مِنْ هَا هُنَا، وَجَاءَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**».

ومعنى (**فَاجْدَحْ لَنَا**): هو خَلْطُ الشَّيءِ بغيره والمراد هنا خلط السويق بالماء وتحريكه حتى يستوي. و(السَّويق) هو دقيقُ الحنطةِ أو الشعيرِ بعد أنْ يُقْلَى.

وقوله: (**عَلَيْكَ نَهَارًا**): لأنَّه رأى آثارَ الضِّياء والحُمرة التي بعد غروبِ الشَّمسِ، فظنَّ أن الفطر لا يَحِلُّ إلا بعد ذهاب ذلك، والصَّحيحُ أنه يَحلُّ بتحقق غروبِ الشَّمسِ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنَا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة السابعة

مع قولِ الله تعالى في تمام الآية المتقدمة: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٧].

قوله: (وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ) **المُبَاشَرةُ هي**: التقاء بِشْرَةُ الرَّجُل بِبِشَرَةِ المرأة، **والمرادُ هُنا**: التقاءُ البشرتين بالجماع، والله عزَّ وجل حييٌّ كريمٌ يُكَنِّي، فلم يَقُلْ: وَلا تُجَامِعُوهُنَّ.

وَلَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أباحَ لِعَبَادِهِ مجامعةَ نسائهم في ليلِ رمضان، فَقَد يُفْهَمُ مِن هذا الإطلاق أنَّ المجامعةَ تكونُ في جميعِ ليالي رمضانَ حتَّى لمن كانَ معتكفًا، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ مِن اعتكف في العشر الأواخر مِن رمضانَ أنَّه لا يجوز له أنْ يجامعَ أهلَه في ليلِ رمضان، وهكذا إنِ اعتكفَ في غيرِ رمضان، فيحرمُ عليه الجِماع سواءٌ في اللَّيل أو في النَّهار، وأنَّ الجماع يفسدُ الاعتكاف ويبطلُه.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وأجمعَ أهلُ العِلم على أنَّ مَن جامعَ امرأتَه وهو معتكفٌ عامدًا لذلك في فَرْجِها أنَّه مفسدٌ لاعتكافه.

وأما المُبَاشرةُ من غير جماعٍ فإنْ قَصَدَ بها التَّلذذ فهي مكروهةٌ، وإنْ لم يقصد لم يُكْرَه، لأنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تُرَجِّلُ (أي تمشط) رأسَ رسولِ الله ﷺ وهو معتكفٌ، وكانت لا محالةَ تَمَسُّ بَدَنَ رَسُولِ الله ﷺ بيدها، فدلَّ بذلك على أنَّ المباشرة بغيرِ شهوةٍ غير محظورةٍ، هذا قول عطاء والشافعي وابن المنذر.

قال أبو عمر (وهو ابن عبد البَّر): وأجمعوا على أنَّ المعتكف لا يُبَاشِرُ ولا يُقَبِّلُ. اهـ

والاعتكاف في اللغة: هو ملازمةُ الشَّيءِ، والمداومة عليه، ومنه قول إبراهيم عليه السلام لقومه: {ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون} [الأنبياء: ٥٢] أي: مديمون ملازمون.

والاعتكافُ في الشَّرع: هو التعبد لله سبحانه وتعالى بلزوم المساجد لطاعة الله.

وقد كان مِن الصحابة رضي الله عنهم إذا رَجعَ أَحَدُهم إلى البيتِ لَيلاً، وهو معتكف، جامع أهله، واغتسل ورجع إلى المسجد، فنَهى اللهُ تعالى المعتكف عنِ الجماع.

وذِكْرُ الاعتكافِ بَعْدَ آياتِ الصِّيام، فيه دلالةٌ على مشروعيةِ الاعتكافِ في رمضان في العشر الأواخر منه، فقد كان النبيُّ ﷺ يعتكف العشرَ الأواخرَ من رمضان، واعتكف أصحابُه، ونساؤُه من بعده ﷺ.

وأمَّا حُكْمُ الاعتكافِ فهو مستحب لفعلِ النبي ﷺ، ولا يجبُ إلا بِنَذْرٍ، كأنْ تقول: لله عليَّ أنْ اعتكفَ ليلةً أو يومًا أو أيامًا في المسجد، وَجَبَ عليه الوفاء به.

وقوله: (فِي ٱلْمَسَٰجِدِ): فيه أنَّ الاعتكاف لا يصحُّ إلا في المسجد الذي يُؤَذَّنُ فيه وتقامُ فيه الصلواتُ الخمس، ولا يشترطُ أنْ تقام فيه الجمعة، وإنْ كان هو الأفضل، حتَّى لا يحصلُ منه الخروج مِن المسجد، فإنْ كان المسجدُ لا جمعة فيه، جازَ له الخروج إلى الجمعة، والرجوع إلى معتكفه.

ولا يجوزُ للمعتكف الخروج مِن المسجد إلَّا لِمَا لا بُدَّ مِنه، كالخروجِ للغائط والبول، أو للأكل والشرب ونحو ذلك، وما كانَ فرضًا كِفائيًّا كعيادة المريض، واتِّباعِ الجنازة، وغيرِ ذلك، فلا يجوزُ له الخروج من أجل ذلك، إلَّا إنْ تَعَيَّنَ ذلك عليه. [يعني لا يُوجدُ ولا يَصْلُحُ من يقوم بذلك إلَّا هو].

وفي الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «**إِنْ كُنْتُ لَأَدْخُلُ الْبَيْتَ لِلْحَاجَةِ، وَالْمَرِيضُ فِيهِ، فَمَا أَسْأَلُ عَنْهُ إِلَّا وَأَنَا مَارَّةٌ، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُدْخِلُ عَلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَأُرَجِّلُهُ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةٍ، إِذَا كَانَ مُعْتَكِفًا**».

والخروجُ الكُلِّي من المسجد لغير ما حاجة يفسُد ويبطلُ الاعتكاف، لمنافاته معنى الاعتكاف الذي هو اللُّزوم والدوام، وأمَّا خروجُ جزء وبعض البَدَنِ فلا يؤثر في الاعتكاف، لِمَا تقدم في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:« **وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيُدْخِلُ عَلَيَّ رَأْسَهُ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَأُرَجِّلُهُ**». أي أمشطُ له شعرَ رأسِه.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: والمشارُ إليه ما ذُكر من أحكامِ الأكل، والشُّرب، والجِماع في ليالي رمضان، و{حدود} جَمْعُ حَدٍّ، و«**الحَدُّ**» في اللغة: المنع، ومنه حدود الدَّار؛ لأنَّها تمنع من دخول غيرها فيها؛ فمعنى {حدود الله} أي موانعه.

واعْلَمْ أنَّ حدود الله نوعان:

١ ـ حدودٌ تمنعُ مَن كان خارجها من الدخول فيها، وهذه هي المحرمات، ويقال فيها: {فلا تقربوها}.

٢ ـ وحدودٌ تمنعُ مَن كان فيها من الخروج منها، وهذه هي الواجبات، ويقال فيها: {فلا تعتدوها}. (عثيمين)

وقوله: (فلا تقربوها) أبلغ من قوله:« فلا تفعلوها»؛ لأنَّ قولَه فلا تقربوها نهيٌ عن الشيءِ وعن الوسائل الموصلة إليه، وأمَّا فلا تفعلوها نهيٌ عن الشيءِ بذاته فقط.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: «لعلَّ» للتعليل، أي

يتقون الله -عزَّ وجل- وتقوى الله سبحانه وتعالى هي اتخاذ وقايةٍ مِن عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ وهذا أجمعُ ما قيل في «التقوى».

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الثامنة

مع قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة البقرة:١٠٢].

لِمَّا كانَ مِن العوائدِ القدريَّة والحكمةُ الإلهية أنَّ من ترك ما ينفعه، وأمْكَنَهُ الانتفاع به فلم ينتفع، أُبْتُلِي بالاشتغالِ بِمَا يضرُّه، فمن ترك عبادة الرَّحمن، أُبتُلِي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، أُبتُلِي بمحبةِ غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفقْ ماله في طاعة الله أنفقه في طاعة الشَّيطان، ومن ترك الذلَّ لربه، أُبْتُلِي بالذلِّ للعبيد، ومن ترك الحق أُبْتُلِي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لَمَّا نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق مِن السِّحر عَلى ملكِ سليمان حيث أَخْرجتِ الشَّياطين للنَّاس السِّحر، وزعموا أنَّ سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم. (تفسير السعدي).

قوله تعالى: {واتَّبَعوا} أي اليهود.

و{تتلو} هنا ليست بمعنى "تقرأ"؛ لكنَّه من: تلاه يتلوه بمعنى: "تبعه"؛ أي ما تَتَّبعه

الشياطين، وتأخذ به.

{على ملك سليمان} أي في ملكه، أي في عهده، وإنَّما قال تعالى: {على ملكِ سليمان}؛ لأنَّ اللهَ جمعَ له بين النُّبوة، والمُلْك، ووَهَبَهُ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده: فسخَّر له الرياحَ، والجنَّ، والشياطينَ؛ فإنَّ سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيًّا رسولًا. (عثيمين)

وَهُم كذبةٌ في ذلك، فلم يستعمِلْه سليمانُ، بل نزَّهَهُ الصَّادق في قيله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} أي: بتعلم السِّحر، فلم يتعلَّمْهُ، {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا} بذلك يعني حال كونهم يعلِّمونَ النَّاس السِّحر.

{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} **السِّحر لغةً**: ما خَفِي ولَطُفَ سببُه، **وفي الشَّرعِ**: هو رُقى، وعزائمُ، وتعاويذُ، وأدويةٌ، وعقاقيرُ تؤثِّر على القلبِ والبَدَنِ بإذنِ الله.

قوله تعالى: {وما أُنزِل على الملكين ببابلَ هاروت وماروت} اخْتُلِفَ في معنى هاروت وماروت هل هما ملكان أو شيطانان؟

قال العثيمين رحمه الله: {الملَكين} بفتح اللام تثنية ملَك، والفرق بين "مَلَك" و"مَلِك" أن "الملَك" بفتح اللام **واحد الملائكة**؛ و"المِلك" بكسر اللام: **الحاكم الذي له سلطة**؛ و "بابل" اسم لبلد في العراق، و{هاروت وماروت} عطف بيان على {الملكين} لبيان اسْمِهما؛ وهما اسمان أعجميان، والمنزَّل عليهما شيء من أنواع السحر... .

قوله تعالى: {حتَّى يقولا إنَّما نحن فتنة} أي اختبارٌ للنَّاس؛ ليتبيَّن مَن يريدُ السَّحر ممَّن لا يريدُهُ.

قوله تعالى: {فلا تَكفر} أي بتعلمِ السِّحر {فيتعلمون} أي النَّاس {ما يفرقون به} أي سحرًا يفرقون به {بين المرء وزوجه}؛ ويُسَمَّى هذا النَّوع من السِّحر "الصَّرف"؛

ويقابله سِحْرُ "العَطْف"؛ وهو مِن أشدِّ أنواع السِّحر؛ لأنَّه يصلُّ بصاحبِهِ إلى الهيمان، والخَبَلِ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى} ينصحاه، و {يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} أي: لا تتعلم السِّحر فإنَّه كُفْر، فينهيانه عنِ السِّحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليمُ الشياطين للسِّحر على وجه التدليس والإضلال، ونِسْبَتُه وترويجه إلى مَن برَّأَهُ اللهُ منه وهو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعليمُ المَلَكين امتحانًا مَع نصحهما لئلا يكون لهم حُجَّة.

فهؤلاء اليهودُ يتبعون السِّحر الذي تعلمه الشياطين، والسِّحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقْبَلُوا على علمِ الشَّياطين، وكلٌّ يَصْبُو إلى ما يُنَاسِبُه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: {وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ} "ما" نفي، والواو للعطف على قوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} وذلك أنَّ اليهود قالوا: إنَّ الله أنزل جبريل وميكائيل بالسِّحر، فنفى الله ذلك. وفي الكلامِ تقديم وتأخير، **التقدير**: وما كفر سليمان، وما أُنْزِلَ على الملكين، ولكنَّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السِّحر ببابل هاروت وماروت، فهاروتُ وماروتُ بَدَلٌ من الشَّياطين في قوله: {وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}. هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصحُّ ما قيل فيها ولا يلتفتُ إلى سواه، فالسِّحر من استخراجِ الشَّياطين لِلَطَافَةِ جَوهَرِهِم، ودِقَّةِ أفهامِهِم، وأكثرُ مَا يتعاطاه من الإنسِ النِّساءِ وخاصَّةً في حالِ طَمْثِهِنَّ، قال الله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: ٤]. اهـ

{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} مع أنَّ محبةَ الزَّوجَين لا تقاسُ بمحبةِ غيرِهِمَا، لأنَّ الله قال في حقِّهِمَا: {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} وفي هذا دليلٌ على أنَّ السَّحر له حقيقة، وأنَّه يضرُّ بإذنِ الله، ...وفي هذه الآيةِ وما أشبهها أنَّ الأسباب مهما بلغت في

قوَّةِ التأثير، فإنها تابعةٌ للقضاءِ والقَدَر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فِرَقِ الأُمَّة غير القَدَرِيَّة في أفعال العباد، زعموا أنَّها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قُدْرَة الله، فخالفوا كتاب اللهِ، وسُنَّةَ رسولِه، وإجماعَ الصحابة والتابعين.

ثُمَّ ذَكَرَ أنَّ عِلْم السِّحر مضرةٌ محضةٌ، ليس فيه منفعةٌ لا دينية ولا دنيوية، كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} فهذا السِّحر مضرةٌ محضةٌ، فليس له داعٍ أَصْلاً، فالمنهياتُ كلها إمَّا مَضَرَةٌ محضةٌ، أو شرُّها أكبرُ من خيرِها، كما أنَّ المأموراتِ إمَّا مصلحةٌ محضةٌ أو خيرُها أكثرُ مِن شرِّها.

{وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ} أي: رَغِبَ في السَّحرِ رغبةَ المشتري في السِّلعة.

{مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ} أي: نَصيبٌ، بل هو مُوجِبٌ للعقوبة، فلم يكنْ فعلُهُم إيَّاهُ جهلاً، ولكنَّهم استحبوا الحياةَ الدنيا على الآخرة.

فقوله تعالى: {لبئس ما شروا به أنفسهم} أي بَاعوا به أنفسَهم؛ لأنَّهم في الحقيقة لمَّا اشتروا السِّحر، الثَّمن الذي بذلوه في هذا السِّحر: أنفسهم؛ لأنَّهم في الحقيقة خسروا أنفسهم؛ صارت الدُّنيا الآن ليس لهم فيها ربحٌ إطلاقًا؛ والآخرة ليس لهم فيها ربحٌ أيضًا؛ فخسروا الدنيا، والآخرة.

قوله: {لو كانوا يعلمون}: يعني: لو كانوا من ذوي العلم المنتفعين بعلمهم ما تعلموا السِّحر.

الوقفة التاسعة

مع قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٢٧].

قال ابنُ سِعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: واذْكُرْ إبراهيمَ وإسماعيلَ، في حالة رفعهما القواعدَ من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالُهما مِن الخوف والرَّجاء، حتى إنَّهما معَ هذا العمل دَعَوَا اللهَ أنْ يتقبَّل منهما عملَهما، حتَّى يحصلُ فيه النَّفع العميم.

وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: **فالقواعدُ**: جمع قاعدةٍ، وهي السَّارية والأساس، يقول تعالى: واذْكرْ -يا محمد -لقومك بناءَ إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيتَ، ورفْعَهُما القواعد منه، وهما يقولان: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} فهُمَا في عملٍ صالحٍ، وهما يسألانِ اللهَ تعالى أن يتقبَّل منهما.

وقد ذكر العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: في ضمن فوائد هذه الآية، فائدة جميلة، فقال:

ومنها: أهميةُ القبول، وأنَّ المدار في الحقيقة عليه؛ وليس على العمل، فكم من إنسانٍ عَمِلَ أعمالاً كثيرةً، وليس له من عمله إلا التَّعب، فلم تنفعْهُ؛ وكم من إنسانٍ عَمِل أعمالاً قليلةً قُبِلَتْ، فنفعَهُ اللهُ بها؛ ولهذا جاء في الحديثِ: «**رُبَّ صَائمٍ حَظُّهُ مِن صِيامِهِ الجُوع، والظَّمَأ؛ وَرُبَّ قائمٍ حَظُّهُ مِن قِيامِهِ السَّهر**». اهـ [أحمد (٨٨٥٦)،وابن ماجه (١٦٩٠) وغيرهما].

قُلتُ: نَعَم أمرُ قبول الأعمال أمرٌ عظيم، فَيا تُرى كَمْ هُمُ العاملونَ للأعمالِ الصَّالحة في هذا الشهر المبارك، وفي غيره، ولكنْ مَن هو المقبول؟!!

ولهذا كانَ السَّلفُ يسألون الله ستَّةَ أشهرٍ أنْ يُبَلِّغَهم رمضان، فإذا بَلَغُوه سألوه أنْ يوفِّقَهم فيه، ويرزقَهُم الجِدَّ والنَّشاط، فإذا أكملوه سألوا اللهَ بقيةَ السَّنَّة أنْ يتقبَّله مِنْهُم.

قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في "لطائف المعارف" في المجلس السادس في وداع رمضان: كانَ السَّلفُ الصالح يجتهدون في إتمامِ العمل وإكماله وإتقانه، ثُمَّ يهتمُّونَ بعد ذلك بقبوله ويخافونَ مِن رَدِه، وهؤلاء الَّذين: {يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُم وَجِلَةٌ}.

ورُوِيَ عَن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُونوا لقبولِ العمل أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله عز وجل يقول: (إنَّما يتقبلُ اللهُ مِنَ المتقين).

وعن فضالةَ بنِ عُبيد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لأنْ أكونَ أعْلَمُ أنَّ الله قد تقبَّلَ منِّي مثقالَ حَبةٍ من خَرْدَلٍ أحبُّ إليّ مِن الدُّنيا وما فيها؛ لأنَّ الله يقول: (إنَّما يتقبلُ اللهُ مِنَ المتقين).

قالَ ابنُ دِينارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوفُ على العملِ أنْ لا يتقبَّل أشدُّ مِن العمل.

وقال عطاءٌ السُّلَمِي رَحِمَهُ اللَّهُ: **الحَذَرُ**: الاتِّقاء عَلى العَمل أنْ لَّا يكونَ للهِ.

وقال عبدُ العزيز بنُ أبي رَوَّاد رَحِمَهُ اللَّهُ: أدْرَكْتُهُم يجتهدون في العملِ الصَّالح فإذا فَعَلُوه وَقَعَ عليهم الهَمُّ أيقبلُ منهم أمْ لا؟

قال بعضُ السَّلفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كانوا يدعون اللهَ ستةَ أشهرٍ أنْ يبلِّغَهم شهر رمضان، ثُمَّ يدعون اللهَ ستةَ أشهرٍ أنْ يتقبَّلَه مِنهم.

خرجَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يومَ عيدِ فطرٍ فقال في خطبته: أيُّها النَّاس إنَّكم صُمْتُم لله ثلاثين يومًا، وقمتم ثلاثين ليلةً، وخرجتم اليومَ تطلبون مِن اللهِ أنْ يتقبَّل مِنْكم.

كانَ بعضُ السَّلف يظهرُ عليه الحُزْنُ يومَ عيدِ الفطر فيقال له: إنَّه يومُ فرحٍ وسرورٍ فيقول: صَدَقْتُم، ولكنِّي عبدٌ أمَرني مولاي أنْ أعمل له عملاً فلا أدري أيقبله مني أم لا؟

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنَّ الله جعل شهر رمضان مِضْمارًا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قومٌ فَفَازُوا، وتخلف آخرون فخابُوا، فالعَجَبُ من اللاَّعِب الضَّاحِك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون.

لَعَلَّكَ غَضْبَانٌ وَقَلْبِيَ غَافِلٌ سَلاَمٌ عَلَى الدَّارَينِ إِنْ كُنْتَ رَاضِيا

ورُوِيَ عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يُنادي في آخرِ ليلةٍ مِن شهر رمضان: يا ليتَ شِعْرِي مَن هذا المقبول فَنُهَنِّيه، ومَن هذا المحرومُ فَنُعَزِّيه...

مَاذا فاتَ مَن فَاتَهُ خيرُ رمضان، وأيُّ شيءٍ أَدْرَكَ مَن أدْرَكَهُ فيه الحرمان، كم بَيْنَ مَن حَظُّهُ فيه القبول والغُفران، ومَن كانَ حظُّه فيه الخَيبة والخُسران، ربَّ قائمٍ حظُّه مِن قيامِهِ السَّهر، وصائمٍ حظُّه مِن صيامه الجوعُ والعطش. اهـ

قلتُ: واعْلم أَخِي المسلم أنَّ مدار قَبُولِ الأعمال بعد الإسلام يكون بتحقيق أمرين اثنين من حققهما -فبإذن الله تعالى-يكون من المقبولين، والأمران هما:

١- إخلاص العمل لله تعالى.

٢- متابعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك العمل، بأن يكون على مقتضى هَدْيِهِ وسُنَّتِهِ.

أما كونُ الإسلام شرط في قبول العمل، فلقول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان:٢٣].

ولقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟

بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ [سورة التوبة:٥٤].

ولِمَا روى مسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: "**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**». أي: إنَّه لم يُسْلِم.

وأمَّا إخلاصُ العملِ للهِ: فلقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ [سورة البينة:٥].

ولِمَا روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** » فكلُّ عملٍ خالطه شركٌ، أو رياءٌ أو سُمْعَةٌ، فهو مردود غير مقبول.

وأمّا المتابعة للنبيِّ ﷺ: فَلِمَا رَوى مسلم عن عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**». ولقوله ﷺ في الصحيحين عن أنسٍ رضي الله عنه: «...**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**» في أُناسٍ عَمِلُوا أَعمالًا عَلى خلافِ هَدْيِهِ وَسُنَّتِه ﷺ.

نسألُ اللهَ تعالى أنْ يتقبَّل مِنَّا ومنكم الصيامَ والقيامَ، وسائرَ الأعمال، ربَّنا تقبل مِنَّا إنَّك أنت السميع العليم، وَتُبْ علينا إنك أنت التَّوابُ الرحيم، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الوقفة العاشرة

مع قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [سورة البقرة:٢٥٥].

هذه الآيةُ تُسمَّى بآيةِ الكُرسي، لِذِكْرِ الكُرْسِي فيها، **والكُرْسي**: هو موضعُ قَدَمَي الرَّحمن جل جلاله، كما ثبت ذلك عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا.

١- **وهذه الآية هي أعظم آيةٍ في القران**، فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**». رواه مسلم (٨١٠). زاد أحمد: « **والَّذي نفسي بيده إنَّ لها لِسَانًا وشفتين تُقَدِّسُ المَلِكَ عِندَ سَاقِ العَرْشِ**".

٢- **وهذه الآيةُ حِرْزٌ لصاحبِهَا مِنَ الشَّيطان**، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: **إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ**: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]: **فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ**

شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ » في حديث طويل في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشَّيطان وأَقَرَّهُ النَّبيُّ ﷺ على هذا. رواه البخاري معلقا، ووصله النسائي وأحمد.

٣- **أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا دُبُرَ كلِّ صَلاةٍ مكتوبةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِن دخولِ الجَنَّةِ إلا الموتُ**، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ**». رواه النسائي وغيره، وصححه العلامة الألباني رحمه الله.

٤- **أَنَّ اسْمَ اللهِ الأَعظم الذي-إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أَعطَى-فيها**، لِمَا جَاءَ عن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "**اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي ثَلاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه**" رواه الطبراني في الكبير (٧٦٥٩).

وقال هشام -وهو ابن عمار خطيب دمشق-: أما البقرة ف {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} وفي آل عمران: {الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} وفي طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه:١١١].

وقوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ} إخبار بأنَّه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

{الْحَيُّ الْقَيُّومُ} أي: الحيُّ في نفسه، الَّذي لا يموتُ أبدًا القَيِّم لغيره وكان عُمَرُ يقرأُ: "القَيَّام" فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنيٌّ عنها ولا قِوامَ لها بدون أَمْرِهِ، كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم:٢٥].

وقوله: {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} أي: لا يَعْتَرِيهِ نقصٌ ولا غفلةٌ ولا ذهولٌ عَن خَلْقِه، بل هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بما كسبت، شهيدٌ على كلِّ شيء، لا يغيبُ عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ومِن تمام القَيُّومِيَّة أَنَّه لا يعتريهِ سِنَةٌ ولا نَومٌ.

{ لا تَأْخُذُهُ } أي: لا تَغْلِبُه سِنَةٌ وهي الوَسَنُ والنُّعاسُ، ولهذا قال: { وَلا نَوْمٌ }؛ لأنَّه أقوى مِن السِّنَةِ، وفي مسلم (١٧٩) عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: " **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ** ".

قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} إخبارٌ بأنَّ الجميع عبيدُه، وفي ملْكِه وتحتَ قهرِهِ وسلطانِهِ، كقوله: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣-٩٥].

وقوله: {مَن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} أي: لا أحدٌ يشفع عندَه بدون إذنه، فالشَّفاعة كلُّها لله تعالى، ولكنَّه تعالى إذا أراد أنْ يرحَم مَن يشاء مِن عباده أَذِنَ لمن أراد أنْ يُكْرِمَهُ مِن عِبادِه أنْ يشفع فيه، لا يبتدئ الشَّافعُ قبل الإذنِ، حتَّى أعظم النَّاس جاهًا عند الله لا يشفعُ إلا بإذن الله؛ فالنَّبيُّ ﷺ يوم القيامة -وهو أعظمُ النَّاس جاهًا عند اللهِ، ومع ذلك لا يشفع إلا بإذْنِ اللهِ لكمالِ سلطانه جلّ وعلا، وهيبتِهِ.

وقوله: {يعلم ما بين أيديهم} أي المستقبل، {وما خلفهم} أي الماضي، وقيل: بالعكس.

قوله تعالى: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} لها معنيان:

المعنى الأول: لا يحيطون بشيءٍ من علمِ نفسِهِ، أي لا يعلمون عن الله سبحانه وتعالى من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، إلا بما شاء أنْ يعلمهم إياه، فيعلمونه.

المعنى الثاني: ولا يحيطون بشيءٍ مِن معلومه -أي مِمَّا يعلمُه في السَّماوات، والأرض -إلَّا بما شاء أنْ يعلِّمَهم إيَّاه، فيعلمونه.

قوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كُرْسِيُّهُ موضعُ قَدَمَيهِ، والعرشُ لا يَقْدِرُ قَدْرَهُ إلَّا الله عزَّ وجل**». وله حكم الرفع.

وقوله: {وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} أي: لا يثقله ولا يُكْرِثُهُ حفظُ السماوات والأرض ومَن فيهما ومَن بينهما، بل ذلك سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، وهو القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، الرقيبُ على جميع الأشياء، فلا يعزبُ عنه شيءٌ، ولا يغيبُ عنه شيءٌ.

وقوله: {وهو العَلِيُّ} بِذَاتِه فوقَ عرشِه، العَلِي بقهرِهِ لجميع المخلوقات، العَلِي بِقَدْرِهِ لكمالِ صفاتِه. {العظيم} الذي **تتضائل** عند عظمته جبروت الجبابرة، **وتَصْغُرُ** في جانب جَلالِهِ أُنُوفُ الملوكِ القاهرة، فسبحانَ مَن له العظمةُ العظيمة، والكبرياءُ الجسيمة، والقهرُ والغلبةُ لكلِّ شَيء.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الحادية عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٦٧-٢٦٨].

يَأْمُرُ تعالى عبادَه المؤمنين بالنفقةِ من طيباتِ ما يَسَّر لهم من المكاسب، ومِمَّا أخرج لهم مِنَ الأرض فكَما مَنَّ عليكم بتسهيلِ تحصيلِه، فأنفقوا مِنْه شُكرًا لله، وأداءً لبعضِ حقوقِ إخوانِكم عليكم، وتطهيرًا لأموالِكم، واقصِدُوا في تلكَ النَّفقة الطَّيب الَّذي تحبُّونه لأنْفُسِكم، ولا تَيَمَّمُوا الرَّديءَ الذيْ لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماضِ والمسامحة. { واعلموا أن الله غنيٌّ حميد } فهو غنيٌّ عنكم، ونَفْعُ صدقاتِكم وأعمالِكم عائدٌ إليكم، ومَع هذا فهو حميدٌ على ما يأمرُكم به منَ الأوامرِ الحميدة، والخصالِ السَّديدة، فعليكم أنْ تمتثلوا أوامرَه؛ لأنَّها قوتُ القلوب، وحياةُ النفوس، ونعيمُ الأرواح، وإيَّاكم أنْ تَتَّبِعوا عَدُوَّكم الشَّيطان الذي يأمرُكم بالإمساك، ويخوِّفُكم بالفقرِ والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نُصحًا لكم، بل هذا غايةُ الغشِّ { إنَّما يدعو حِزْبَهُ ليكونوا مِن أصحاب السَّعير } بل أطيعوا ربَّكم الذي يأمركم بالنَّفقة على وجه يَسْهُلُ عليكم ولا يَضُرُّكُم، ومع هذا فهو { يَعِدُكُم مغفرةً } لذنوبِكُم وتطهيرًا لعيوبِكُم {

وفضلاً } وإحسانًا إليكم في الدنيا والآخرة، مِن الخَلَفِ العَاجل، وانشراحِ الصدر، ونعيمِ القلب والرُّوح، والقبرِ، وحصولِ ثوابِها وتوفيتِها يوم القيامة، وليس هذا عظيمًا عليه؛ لأنَّه { واسعُ } الفَضْلِ، عظيمُ الإحسان {عليم} بِما يصدُرُ منكم من النَّفقات قليلُها وكثيرُها، سرِّهُا وعَلَنُهَا، فيجازيكم عليها من سَعته وفضله وإحسانه، فلينظرِ العبدُ نفسه إلى أيِّ الداعيين يميلُ، فقد تضمنتْ هاتان الآيتان أمورًا عظيمة **منها**: الحثُّ على الإنفاق، **ومنها**: بيانُ الأسباب الموجبة لذلك، **ومنها**: وجوبُ الزَّكاة من النَّقدين وعروض التِّجارة كلِّها، لأنَّها داخلة في قوله: { من طيبات ما كسبتم } **ومنها**: وجوب الزَّكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، **ومنها**: أنَّ الزَّكاة على من له الزَّرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله: {أخرجنا لكم} فمن أخرجت له وجبت عليه **ومنها**: أنَّ الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الدِّيون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يَقْدِرُ رَبُّها [أي صاحبُهَا] على استخراجها مِنه، ليس فيها زكاةٌ[1]؛ لأنَّ اللهَ أوجب النفقةَ من الأموال التي يحصل فيها النَّماء الخارج من الأرض، وأموال التِّجارة مواساةً من نمائها، وأمَّا الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدورًا عليها فليس فيها هذا المعنى، **ومنها**: أنَّ الرديء يُنهَى عن إخراجه ولا يجزئ في الزكاة.

قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا}: سبق مرارًا وتكرارًا أنَّ تصديرَ الخطاب بالنِّداء يَدُلُّ على أهميتِهِ، والعنايةِ به؛ لأنَّ النِّداء يتضمن التنبيه؛ والتنبيه على الشيءِ دليلٌ على الاهتمام به، وأنَّ تصديره بـ{يا أيها الذين آمنوا} يفيد عدة فوائد:

---

[1] ومتى رجعت إليه لزمه إخراج الزكاة عنها.

أولًا: الإغراء؛ و«**الإِغْرَاءُ**» معناه: الحَثُّ عَلى قَبولِ مَا تخاطَبُ بِهِ؛ ولهذا قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا} فَأَرْعِهَا سمعك، فإنَّه خيرٌ يُأمَرُ به، أو شرٌّ يُنَهى عنه»؛ ولهذا لو ناديتك بوصفك، وقلت: يا رَجُل، يا ذَكِي، يا كَرِيم. معناه: يا من توصف بهذا، اجعل آثار هذا الشيء بَاديًا عليك.

ثانيًا: أنَّ امتثال ما جاء في هذا الخطاب من مقتضيات الإيمان؛ كأنه تعالى قال: {يا أيها الذين آمنوا} إنَّ إيمانكم يدعوكم إلى كذا وكذا.

ثالثًا: أنَّ مخالفتَهُ نقصٌ في الإيمان؛ لأنَّه لو حقَّقَ هذا الوصف لامْتَثَلَ ما جاء في الخطاب.

قوله تعالى: {أنفقوا من طيبات ما كسبتم}: بعد أنْ ذَكَر الله سبحانه وتعالى فيما سبق فضيلةَ الإنفاق ابتغاءَ وجهِه، وسوءَ العاقبةِ لمن مَنَّ بصدقته، أو أنفق رياءً، حثَّ على الإنفاق، لكنَّ الفَرْقَ بَينَ مَا هُنا، ومَا سبق: أنَّ مَا هنا بيان للذي ينفَقُ منه؛ وهناك بيان للَّذي ينَفَق عليه.

وقوله تعالى: {من طيبات ما كسبتم} أي مما كسبتموه بطريق حلالٍ، و{كسبتم} أي ما حصلتموه بالكسب، كالذي يحصل بالبيع والشراء، والتأجير، وغيرها، وكل شيءٍ حَصَلَ بعملٍ مِنك فهو من كسبِك.

قوله تعالى: {ومما أخرجنا لكم من الأرض}: قال بعضُهُم: إنَّه معطوف على {ما} في قوله تعالى: {ما كسبتم}؛ يعني: «ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض»، ولكنَّ الصحيحَ الذي يظهرُ أنه معطوف على قوله تعالى: {طيبات}؛ يعني: «أنفقوا من طيبات

ما كسبتم، وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض»؛ لأنَّ ما أَخرَجَ اللهُ لنا مِنَ الأرض كُلُّه طَيِّبٌ، مِلْكٌ لَنَا[1]، كما قال تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا} [البقرة: ٢٩].

وقوله: {مِمَّا}: لو قلنا: إنَّ «مِن» للتبعيض يكون المعنى: أنفقوا بعض طيبات ما كسبتم، وبعض ما أخرجنا لكم من الأرض، وهناك احتمال أنَّ «مِن» لبيان الجنس؛ فيشمل ما لو أنفق الإنسان كلَّ مالِه، وهذا عندي أحسن؛ لأنَّ التي للجنس تَعُمُّ القليل والكثير.

(العثيمين).

[1] إلا ما كان من الخبائث أو جاء الدليل بتحريمه.

الوقفة الثانية عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [سورة التوبة:٦٠].

هذهِ الآيةُ في بيانِ مَن تصرَفُ لهم الصدقات والزَّكوات، وهم أصنافٌ ثمانية، لا يُتَجاوَز غيرهم.

قالَ ابن كثير رحمه الله: وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

أحدهما: أنَّه يجبُ ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة.

والثاني: أنَّه لا يجبُ استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميعَ الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السَّلف والخلف، منهم: عمر، وحذيفة، وابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جُبَير، وميمون بن مِهْران.

قال ابن جرير رحمه الله: وهو قول عامَّةِ أهلِ العلم، وعلى هذا فإنما ذُكِرتْ الأصنافُ هاهنا لبيان المصرَف، لا لوجوبِ استيعابِ الإعطاء.

قال العَلاَّمة ابن سعدي رحمه الله: أي: إنَّما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنَّه حَصَرَهَا فيهم، **وهم ثمانيةُ أصنافٍ**:

الأوَّلُ والثَّاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع، صنفان متفاوتان:

فالفقير: أشدُّ حاجة من المسكين، لأنَّ الله بَدَأَ بهم، ولا يبدأُ إلَّا بالأهَمِّ فالأهَم، فَفُسِرَ **الفقيرُ**: بأنَّه الذي لا يجدُ شيئًا، أو يجدُ بعضَ كفايتِهِ دونَ نِصْفِها.

والمسكين: الذي يجدُ نصفَهَا فأكثر، ولا يجدُ تَمامَ كفايتِهِ، لأنَّه لو وجدها لكان غنيًّا، فيُعطَونَ من الزَّكاة ما يزولُ به فقرُهُم ومسكنتُهُم.

والثَّالثُ: العاملون على الزكاة، وهم كلُّ من له عَمَلٌ وشغلٌ فيها، مِن حافِظٍ لها، أو جَابٍ لها مِن أهلِها، أو راعٍ، أو حاملٍ لها، أو كاتبٍ، أو نحوِ ذلك، فيعطون لأجْلِ عمالتِهِم، وهي أجرةٌ لأعمالِهم فيها.

والرَّابعُ: المؤلفة قلوبهم، **المؤلف قلبه**: هو السَّيِّدُ المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامسُ: الرِّقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسَهم مِن ساداتِهم، فَهُم يسعون في تحصيل ما يَفُكُّ رقابَهم، فَيُعَانُونَ على ذلك من الزَّكاة، وفَكُّ الرَّقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنَّه يجوز أنْ يعتق منها الرَّقاب استقلالًا؛ لدخوله في قوله: {وفي الرقاب}.

السَّادسُ: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شرٌّ وفتنةٌ، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنيا.

والثاني: مَن غَرِمَ لنفسه ثمَّ أعْسَر، فإنَّه يُعْطَى ما يُوَفِّي به دَينُه.

والسَّابعُ: الغازي في سبيل الله، وهم: الغزاة المتطوعة، الذين لا دِيوانَ لهم [أي رواتب تكفيهم]، فيعطون مِن الزَّكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمنِ سِلاحٍ، أو دابةٍ، أو نفقةٍ له ولعياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئنُ قَلْبُه.

وقال كثير من الفقهاء: إنْ تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم، أُعطي من الزَّكاة؛ لأنَّ العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضًا: يجوز أنْ يُعطى منها الفقير لحَجِ فرضِهِ، [وفيه نظر].

والثَّامنُ: ابنُ السَّبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى مِن الزَّكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

{فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ} فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحُكْمِه {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} واعلم أنَّ هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: مَن يُعطَى لحاجته ونفعه، كالفقير، والمسكين، ونحوهما.

والثاني: مَن يُعطى للحاجةِ إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجبَ اللهُ هذه الحِصَّة في أموال الأغنياء، لسَدِّ الحاجات الخاصَّةِ والعامَّةِ للإسلام والمسلمين، فلو أَعْطَى الأغنياءُ زكاةَ أموالِهم على الوجه الشَّرعي، لم يَبْقَ فقيرٌ من المسلمين، ولحَصَلَ مِن الأموال ما يَسُدُّ الثغور، ويُجَاهَدُ به الكفَّار، وتحصلُ به جميع المصالح الدينيَّة.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الثالثة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [سورة البقرة:٢٦٣-٢٦٤].

في هاتين الآيتين الكريمتين بيَّن المولى عزَّ وجل ما ينبغي أنْ يكون عليه المتصدق.

فقوله تعالى: {قولٌ مَعروفٌ} أي ما نَطَق به اللِّسَان مَعروفًا في الشَّرع، ومعروفًا في العُرْفِ والعَادة.

مثال ذلك: أن يأتي رجلٌ يسأل مالاً بحاله، أو قاله؛ فكلمه المسؤول، وقال: ليس عندي شيء، وسيرزق الله، وإذا جاء شيء فإننا نجعلك على البَالِ إن شاء الله، وما أشبه ذلك؛ فهذا قول معروف ليِّن، وهيِّن، ويدخل في ذلك كلُّ قولٍ كريمٍ فيه إدخال السرور على قلبِ المسلم، ويدخل فيه: ردُّ السَّائلِ بالقول الجميلِ والدعاءِ له.

قوله تعالى: {ومغفرةٌ} أي: مغفرةُ الإنسانِ لمن أساءَ إليه، قال تعالى: {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: ٤٣]، القولُ المعروفُ إحسانٌ، والمغفرة إحسانٌ، **ولكنَّ الفَرْقَ بينهما**: أنَّ «القولَ المعروفَ» إسداءُ المعروف القولي إلى الغير، و

«المغفرة» تسامح الإنسان عن حقِّهِ في جانب غيره. ويدخل فيه العفو عمَّا يصدُرُ مِنَ السَّائل ممَّا لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خيرٌ من الصدقةِ التي يتبعها مَنٌّ أو أَذًى.

وقوله تعالى: {خيرٌ مِن صدقةٍ يتبعها أذًى}،«**الصدقةُ**»: بَذْلُ الإحسان المالي، الإنسان قد ينتفعُ بالمالِ أكثر ممَّا ينتفع بالكلمة، وقد ينتفع بالكلمة أكثر مما ينتفع بالمال، لكنْ لا شَكَّ أنَّ القولَ المعروفَ خيرٌ مِن الصدقة التي يتبعها أذًى، وإنْ نفعتْ؛ لأنَّك لو تُعْطِي هذا الرَّجُلَ ما تعطيه مِن المال صدقةً لله عزَّ وجل، ثُمَّ تُتْبِعها الأذى، فإنَّ هذا الإحسان صَار في الحقيقة إساءة -وإنْ كان هذا قد ينتفعُ به في حَاجَاته -لكنْ هو في الحقيقةِ إساءة له.

قوله تعالى: {واللهُ غنيٌّ} أي عن غيره، فهو سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحدٍ، وكلُّ مَن في السَّموات والأرضِ فإنَّه محتاجٌ إلى الله تعالى، هو غنيٌّ بذاته عن جميع مخلوقاته، فله الغنى المطلق من جميع الوجوه.

قوله تعالى: {حليمٌ}؛ «**الحِلم**» تأخيرُ العقوبة عن مستحقها؛ قال ابن القيم في النونية:

وهو الحليمُ فلا يعاجلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَتِهِ لِيَتُوبَ مِن عِصْيَانِ

وجَمَعَ اللهُ في هذه الآية بين «الغِنى» و «الحِلْم»؛ لأنَّ الآية في سياق الصدقة، فبين عزَّ وجل أنَّ الصدقات لا تنفعُ اللهَ، وإنَّما تنفع مَن يتصدَّقُ، والآيةُ أيضًا في سياق من أتْبَعَ الصَّدقةَ أذًى ومِنَّة؛ وهذا حَرِيٌّ بأنْ يُعَاجَل بالعقوبة، حيث آذى هذا الرَّجُلَ الذي أعطاه المالَ لله؛ ولكنَّ الله حليمٌ يحلمُ على عبده لَعلَّهُ يتوبُ مِن المعصية.

ومفهوم الآية: أنَّ الصَّدقةَ التي لا يتبعها أذًى أفضل مِن القولِ المعروفِ والمغفرةِ، وإنَّما كان المَنُّ بالصَّدقة مفسدًا لها مُحَرَّمًا؛ لأنَّ المِنَّة لله تعالى وحدَه، والإحسان كلُّه لله، فالعبدُ لا يَمُنّ بنعمةِ اللهِ وإحسانِه وفضلِه وهو ليس مِنْهُ، وأيضًا فإنَّ المَانَّ مُسْتَعْبِدٌ لمَن

يَمُنُّ عليه، والذّلُّ والاستعبادُ لا ينبغي إلا لله، والله غنيٌّ بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلُّها مفتقرةٌ إليه بالذَّاتِ في جميع الحالات والأوقات. (عثيمين) بتصرف.

ثُمَّ حذَّر اللهُ تعالى عبادَهُ المتصدقين مِن إبطالِ صدقاتِهم سواءٌ عند إنفاقِها، أو بعدَ إنفاقِها، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذَى} فأَخبرَ أنَّ الصَّدقة تبطل بما يتبعها مِن المَنِّ والأذَى، فما يَفِي ثوابُ الصدقةِ بخطيئةِ المَنِّ والأذَى.

ثُمَّ قال تعالى: {كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ} أي: لا تبطلوا صدقاتِكم بالمَنِّ والأذى، كما تبطل صدقة مَن راءَى بها النَّاسَ، فأظهرَ لهم أنَّه يريدُ وجهَ اللهِ، وإنَّما قصدُهُ مدح النَّاس لَهُ أو شهرته بالصِّفات الجميلة، ليُشْكَرَ بين النَّاس، أو يقال: إنَّه كريمٌ، ونحو ذلك مِن المقاصد الدنيوية، مع قطعِ نظرِهِ عنْ معاملة الله تعالى وابتغاءَ مرضاتِه وجزيل ثوابِهِ؛ ولهذا قال: {وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}.

ثُمَّ ضَرَبَ تعالى مَثَلَ ذلك المرائي بإنفاقه. قال الضحاك: والذي يتبع نفقته مَنًّا أو أذًى، فقال: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ} وهو جَمْعُ صَفْوانة، ومنهم مَن يقول: الصَّفوان يستعمل مفردًا أيضًا، وهو الصَفا، وهو الصخرُ الأملس {عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ} وهو المطرُ الشديدُ {فَتَرَكَهُ صَلْدًا} أي: فَتَرَكَ الوَابلُ ذلك الصَّفوان صَلدًا، أي : أمَلس يابسًا، أي: لا شيءَ عليه من ذلك التُّراب، بل قد ذهب كلُّه، أي: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحلُّ عند الله، وإنْ ظهرَ لهم أعمالٌ فيما يَرى النَّاس كالتُّراب؛ ولهذا قال: {لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.(ابن كثير).

نسألُ اللهَ تعالى أن يجعلَ أعمالنا خالصةً لوجهِهِ الكريم، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الوقفة الرابعة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٠٣].

أَمْرَ اللهُ تعالى عبادَهُ بما يعينُهم على التقوى وهو الاجتماعُ والاعتصامُ بدينِ اللهِ، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإنَّ في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يَصلُحُ دينهم وتَصْلُحُ دنياهم، وبالاجتماعِ يتمكنون مِن كلِّ أمرٍ من الأمور، ويحصلُ لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عَدُّهَا، مِن التعاون على البِرِّ والتقوى، كما أنَّ بالافتراق والتعادي يختلُّ نظامُهم وتنقطع روابطُهُم ويصيرُ كلُّ واحدٍ يعملُ ويسعى في شهوةِ نفسِهِ، ولو أدَّى إلى الضَّرر العَام، ثُمَّ ذَكَّرَهم تعالى نعمتَهُ وأمرهم بذكرِها، فقال: { واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء } يقتل بعضُكم بعضًا، ويأخذ بعضكم مالَ بعض، حتى إنَّ القبيلةَ يعادي بعضُهم بعضًا، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شرٍّ عظيمٍ، وهذه حالةُ العرب قبلَ بعثةِ النَّبيِّ ﷺ فلما بعثه اللهُ وآمنوا به، واجتمعوا على الإسلام، وتآلفت قلوبُهم على الإيمان، كانوا كالشَّخص الواحد، من تَآلُفِ قلوبِهم، وموالاةِ بعضِهم لبعضٍ، ولهذا قال: { فَأَلَّفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار } أي: قد

استحقيتم النَّار، ولم يبقَ بينكم وبينها إلا أنْ تموتوا فتدخلوها { فأنقذكم منها } بِما مَنَّ عليكم مِن الإيمان بمحمدٍ ﷺ { كذلك يبين الله لكم آياته } أي: يوضِّحُها ويُفَسِّرُها، ويبيِّنُ لكم الحقَّ من الباطل، والهُدَى من الضَّلال { لعلكم تهتدون } بمعرفةِ الحقِّ والعمل به، وفي هذه الآيةِ ما يدلُّ أنَّ اللهَ يحبُّ مِن عبادِه أنْ يذكروا نعمتَه بقلوبهم وألسنتِهم؛ ليزدادوا شكرًا له ومحبةً، وليزيدهم من فضلِه وإحسانِه، وإنَّ مِن أعظَمِ ما يُذْكَرُ من نعمِه، نعمة الهداية إلى الإسلام، واتِّباع الرسول ﷺ، واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

قال العلامة الشوكاني في "فتح القدير" عند الآية:

قوله: {واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا} الحبل لفظٌ مشترك، وأصله في اللغة السَّبب الذي يتوصل به إلى البُغْية، وهو: إمَّا تمثيل، أو استعارة. أمرهم سبحانه بأنْ يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام، أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدِّين، ثُمَّ أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم، وبَيَّنَ لهم من هذه النِّعمة ما يناسب المقام، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضُهم بعضًا، وينهب بعضُهم بعضًا، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخوانًا وكانوا على شفا حفرة من النَّار بما كانوا عليه من الكفر، فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالإسلام. ومعنى قوله: {أصبحتم} صِرْتُم، وليس المراد به معناه الأصلي: وهو الدُّخول في وقت الصَّباح، وشَفَا كلِّ شيءٍ: حَرْفُهُ، وكذلك شَفِيره، وأشفى على الشيءِ: أشرَف عليه، وهو تمثيل للحالة التي كانوا عليها في الجاهلية. اهـ

وقوله: {كذلك يبيِّنُ اللهُ لَكُم آياتِهِ} إشارةٌ إلى مصدر الفعل الذي بعده أي: مثل ذلك البيان البليغ يبين الله لكم.

وقوله: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} إرشادٌ لهم إلى الثباتِ على الهُدى، والازديادِ منه.

فابتعد أخي المسلم –وفقك الله–عن الفرقة وعن أسبابها، واحذر أنْ تكونَ مِن دعاتِها، أو من حَطَبِهَا ووقودِهَا، فكم فرقتنا وشتَّتْنا الحزبيات، والمذهبيات، والعنصريات، والأهواء والبدع والخرافات، والمعاصي والسيئات، فالحقُّ والطَّاعة تجمع وتؤلف بين القلوب، والمعاصي والذنوب والأهواء تفرق بينها، نسأل الله العافية والسلامة، وأنْ يجمعَ كلمتنا وقلوبنا على الحقِّ والهدى، وأنْ يصرف عنَّا كلَّ شرٍّ وفتنة.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الخامسة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [سورة المائدة:٧٨-٧٩].

قوله: {لُعِنَ} من اللَّعن بمعنى الطَّردِ من رحمة الله، فالملعونُ هو المحرومُ من رحمته -سبحانه- ولطفِه وعنايتِه.

والمعنى: لَعَنَ اللهُ -تعالى- الذين كفروا من بني إسرائيل بأنْ طرَدَهم من رحمته، على لسانِ نَبيِّنِ كريمين هما: داود وعيسى عليهما السلام.

وقد جاء الفعل " لُعِنَ " بالبناء للمجهول؛ لأنَّ الفاعلَ معلومٌ، وهو الله -تعالى-، ولأنَّ الأنبياءَ ومنهم داود وعيسى لا يَلْعَنُونَ أحَدًا إلَّا بإذن الله -سبحانه-.

وقوله: {على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ} متعلق بلعن، أي: لعَنَهُم -سبحانه- في الزَّبورِ والإنجيل على لسان هذين النبيِّن الكَريمينِ.

وقيل: إنَّ الذين لُعِنُوا على لسان داود هم أصحابُ أَيْلَة، أصحابُ السَّبتِ، وقصتهم معروفة، والَّذين لُعِنوا على لسان عيسى ابنِ مريم عليه السلام هم الذين كفروا مِن أصحابِ المائدة بعد نزولِهَا.

وقوله: {ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} بيان لسببِ لَعْنِهِم وطردِهِم من رحمة الله.

واسمُ الإشارة {ذلك} يعودُ إلى اللَّعنِ المذكور أي: ذلك اللَّعنُ للكافرين من بني إسرائيل؛ سَبَبُهُ عِصْيَانُهم لله ولرسله، وعُدْوَانِهم على الذين يأمرونهم بالقسطِ من النَّاس.

وَعَبَّرَ -سبحانه- عن عصيانِهم بالماضي فقال: {ذلك بِمَا عَصَوْا} للإشارة إلى استقرارِ العِصيانِ في طبائعهم، وثباتِه في نفوسهم وجوارحِهم.

وَعَبَّرَ عن عدوانِهم بالمضارع، للإيذان بأنَّه مُستمرٌ قائمٌ، فهم لم يتركوا نبيًّا إلا آذوه، ولم يتركوا مصلِحًا إلَّا واعتدوا عليه، فاعتداؤهم على المصلِحِين مستمرٌّ في كلِّ زَمانٍ ومكانٍ.

ثُمَّ فَسَّرَ -سبحانه- عصيانَهم وعدوانَهُم بقوله: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}، وقوله {يَتَنَاهَوْنَ} من التَّناهي.

قال الفخرُ الرَّازِي: **وللتناهي ههنا معنيان:**

أحدهما: وهو الذي عليه الجمهور، **أَنَّه تفاعلٌ مِن النَّهي**، أي: كانوا لا يَنْهَى بعضُهم بَعضًا.

والمعنى الثاني: في التَّنَاهي أَنَّه بمعنى **الانتهاء عَنِ الأمْرِ**، تَنَاهى عنه إذا كفَّ عنه ".

والمنكر: هو كلُّ ما تُنْكِرُهُ الشَّرائع والعقول من الأقوالِ والأفعالِ.

فكانَ لا يَنْهى بعضُهم بعضًا عن اقتراف المنكرات، واجتراحِ السَّيِّئَاتِ، بل كانوا يرون المنكراتِ تُرتَكبُ فَيَسْكتونَ عليها، بدون استنكارٍ، مع قدرتِهم على منعها قَبْلَ وُقوعِهَا.

- وهذا شرُّ ما تصابُ به الأُمَم حاضرُهَا ومستقبلُهَا: **أنْ تفشوَ فيهَا المنكراتُ والسيئاتُ والرذائلُ، فلا تجدُ من يستطيعُ تغييرَهَا وإزالتَها.**

{لَبِئْسَ} اللامُ لَامُ القَسَم فكأنَّه -سبحانه-قال: أُقْسِمُ لبئس ما كانوا يفعلون وهو ارتكاب المعاصي والعدوان، وتركُ الأمرِ بالمعروف والنَّهيِّ عن المنكر.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وجوبَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر؛ لأنَّهما قِوام الأُمم، وسياجُ الدِّين، ولا صلاحَ لأُمَّةٍ مِن الأُمم إلَّا بالقيام بحقِّهما.

ومِن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**».

ورَوى الترمذي عن حذيفةَ بنِ اليمان رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ**».

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال: «**أَلاَ لاَ يَمْنَعَنَّ رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ**» **قَالَ:** فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ رضي الله عنه، وَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهِبْنَا.

وأمَّا قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [سورة المائدة:١٠٥].

فليس معناها تركُ الأمرِ بالمعروف والنَّهيِ عنِ المنكر، لِمَا روى الإمام أحمد عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِيقِ رضي الله عنه قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ

مَوْضِعِهَا وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقَابِهِ**» قَالَ الراوي عنه: وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلإِيْمَانِ .

فَعَلَى الأُمَّةِ الإِسلامية أنْ تقومَ بحقِّها حتَّى تكونَ مستحقةٌ لمدحِ اللهِ تعالى لها بقوله : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله}، وما أتَتْ غُربةُ الدِّين إلا بتركهم هذا الأمرَ العظيم.

وقال الشوكاني رحمه الله في " فتح القدير": قوله: {لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بَنِي إسرائيل} أي لَعَنَهم اللهُ سبحانه {على لِسَانِ دَاوُودُ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ} أي: في الزَّبورِ والإنجيلِ على لسانِ داود وعيسى بما فعلوه من المعاصي، كاعتدائهم في السَّبت، وَكُفْرِهِم بعيسى. قوله: {ذلك بِمَا عَصَواْ} جملة مستأنفةٌ جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدّر، والإشارة بذلك إلى اللَّعن، أي ذلك اللَّعن بسبب المعصيةِ والاعتداء لا بسببٍ آخر، ثُمَّ بيَّن سبحانه المعصيةَ والاعتداءَ، بقوله: {كَانُواْ لاَ يتناهون عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}، فأَسْنَدَ الفعلَ إليهم؛ لكون فاعله مِن جملتهم وإنْ لم يفعلوه جميعًا.

والأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكر من **أهمِّ القواعدِ الإسلامية، وأجلِّ الفرائضِ الشرعيَّة**، ولهذا كانَ تاركُه شريكًا لفَاعل المعصية، ومستحقًّا لغضبِ اللهِ وانتقامه، كما وقع لأهلِ السَّبتِ، فإنَّ الله سبحانه مَسَخَ مَن لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين فصاروا جميعًا قردة وخنازير: {إِنَّ فِي ذلك لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧]، ثُمَّ إنَّ الله سبحانه قال مُقَبِّحًا لعدم التناهي عن المنكر: {لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} أي مِن تَرْكِهِمُ لإنْكارِ ما يجبُ عليهم إنْكَارُه.

الوقفة السادسة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ [سورة المائدة:٨٩].

قال ابن كثير رحمه الله: لَغْوُ اليمين، قولُ الرَّجلِ في الكلام من غيرِ قصدٍ: **لاَ واللهِ، وبَلَى واللهِ**، وهذا مذهبُ الشافعي.

وقيل: هو في الهَزْل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظَّن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغَضَبِ. وقيل: في النِّسْيانِ. وقيل: هو الحَلِفُ على تركِ المأْكلِ والمشربِ والملبسِ ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: {لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ}.

والصَّحيحُ: أنَّه اليمين مِن غَيرِ قَصْدٍ؛ بدليل قوله: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ} أي: بما صَمَّمْتم عليه مِن الأَيمان وقصدتموها. اهـ

قال السعدي رحمه الله: في قوله: {لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ} أي: في أيمانكم التي صدرتْ على وجهِ اللغو، وهي الأيمان التي حَلَف بها المُقْسِم مِن غير نِيَّةٍ ولا قَصْدٍ، أو عَقَدَهَا يظنُّ صِدقَ نَفْسِهِ، فَبَانَ بخلافِ ذلك.

(عَقَّدتُّم) بالتشديد، أي: وَكَدتُّم، وقصدتُّم وتعمدتُّم. فاليمين المنعقدة مُنْفَعِلَةٌ مِن العَقْد، وهي عَقْدُ القلبِ في المستقبل ألَّا يَفْعَلَ فَفَعَلَ؛ أو ليَفْعَلَنَّ فلا يَفْعَلُ. اهـ

وقوله تعالى: {فَكَفَّارَتُهُ} أي: كفارةُ مَا عقَّدتُّم الأيمان إذا حنثتم.

وقوله: {إطعام عشرة مساكين} يعني: محاويج من الفقراء، ومَن لا يجدُ ما يَكْفِيهِ.

وقوله تعالى: {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ} قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة: أي من أعْدَلِ ما تطعمون أهليكم.

وهو هنا منزلة بين منزلتين ونصفًا بين طرفين. ومنه الحديثُ "**خَيرُ الأمورِ أَوْسَطُهَا**". وخرَّج ابنُ ماجة [قال]: حدثنا محمدُ بنُ يحيى، حدثنا عبدُ الرحمن بنُ مهدي، حدثنا سفيانُ بنُ عيينة، عن سليمان بنِ أبي المغيرة، عن سعيد بنِ جبير عن ابنِ عباسٍ قال: **كان الرَّجُل يقوتُ أهلَهُ قوتًا فيه سَعَة، وكانَ الرَّجلُ يقوتُ أهلَهُ قُوتًا فيه شِدَّة**؛ فنزلت: {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ}. وهذا يدلُّ على أنَّ الوَسَط ما ذكرناه وهو ما كان بين شيئين.

وقوله: {أَوْ كِسْوَتُهُمْ} قال الشافعي رحمه الله: لو دفع إلى كلِّ واحدٍ من العشرة ما يَصْدُقُ عليه اسم الكسوة من قميصٍ أو سراويلَ أو إزارٍ أو عمامةٍ أو مِقْنَعَةٍ أجزأه ذلك.

وقوله: {أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكَافرة كما تجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بُدَّ أنْ تكونَ مؤمنةً. وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارَةِ القتل؛ لاتِّحاد المُوجِبُ وإنْ اختلف السَّبب، ولحديث معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه، الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنَّه ذَكَرَ أنَّ عليه عتقَ رقبة، وجاء معه بجاريةٍ سوداءَ، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: "**أينَ اللهُ؟**" قالت: في السماء. قال: "**مَن أَنَا؟**" قالت: رسول الله. قال: "**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَة**". الحديث بطوله.

قلتُ: وقول الشافعي هو الصحيح من تقييد الرقبة بالمؤمنة، لما ذكر مِن الدليل والتعليل، وحمل المطلق على المقيد.

فهذه خصالٌ ثلاثٌ في كفارةِ اليمينِ، أيُّها فَعَلَ الحانثُ أجزأَ عَنْهُ بالإجماع.

وقد بَدَأَ بالأسهلِ فالأسهل، فالإطعام أيْسَرُ من الكِسوة، كما أنَّ الكِسوة أيْسرُ من العتق، فَرُقِيَ فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإنْ لم يَقْدِر المكلَّفُ على واحدةٍ من هذه الخصال الثلاث، كَفَّرَ بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ، كما قال تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ}.

والعَجْزُ: أنْ لا يَفْضُلَ من ماله عن قوته وقوتِ عيالِه وحاجتِه ما يُطْعِمُ، أو يَكْسُو، أو يعتق، فإنَّه يصوم ثلاثةَ أيامٍ.

ولا يشترطُ في الصوم التَّتابع، فقوله: {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ}. يَصْدُقُ على المجموعة والمُفَرَّقَة.

وقوله: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} قال ابنُ جريرٍ: معناه لا تتركوها بغير تكفير.

قال العلاَّمة السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: {وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} عن **الحلفِ باللهِ كاذبًا**، وعن **كَثْرَةِ الأيمانِ**، واحفظوها إذا حلفتم **عَنِ الحِنثِ فيها**، إلَّا إذا كان الحنثُ خيرًا، فتمامُ الحفظ: أن يفعلَ الخَيرَ، ولا يكونُ يمينه عُرضَةً لذلكَ الخير. قلتُ: ويُكَفِّرُ عن يمينه.

ثُمَّ قال: وتلخَّصَ أنَّ حفظَ اليمين يكون عن أربعةِ أشياء:

١- عن الحلف بالله كاذبًا. ٢-عن كَثرةِ الأيمان. ٣-على ألَّا يَحْنَثَ فيها. ٤-أنْ يكفِّرَ عنها إذا حَنَثَ.

قلتُ: ويُزادُ خامسًا: وهو أنْ يحفظَها عن الحَلِفِ بغير الله تعالى.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ} المُبَيِّنَةُ للحلالِ مِن الحرام، المُوَضِّحَةُ للأحكام، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} اللهَ حيثُ علَّمَكم ما لم تكونوا تعلمون، فعلى العبادِ شُكْرُ الله تعالى على مَا مَنَّ به عليهم، من معرفة الأحكام الشَّرعية وتبيينها.اهـ

مسألة: هل يجوز تقديم الكفارة على الحنث؟

الجواب: نعم، لِمَا روى الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « **مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلْ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**».

فبدأ بالكفارة قبل الحنث، **ومعنى الحنث**: أن يفعل خلاف ما حلف عليه.

وإنْ حَلَفَ على ترك مندوب أو فعل مكروه فالحنث أفضل ويُكَفِّر، لما جاء في الصحيحين عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَائْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**».

فائدة: جاء عن علقمةَ عن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه، قال: الأيمان أربعة:

يمينان يكفران، ويمينان لا يكفران.

- **فاليمينان اللَّذان يُكفّرَان**: فالرجل الذي يحلف والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل، والرجل يقول: والله لأفعلنَّ كذا وكذا، فلا يفعل.

قلتُ: يعني إذا حلف على أمرٍ في المستقبل، ثم خالف ما حلف عليه.

- **واليمينان اللَّذان لا يكفران**: فالرَّجُلُ يحلف والله ما فعلت كذا وكذا، وقد فعل، والرَّجُلُ يحلفُ لقد فعلتُ كذا وكذا، ولم يَفْعَلْهُ.

قلتُ: يعني حَلَفَ على شيءٍ قد مَضَى، ويكون آثمًا على ذلك؛ لأنَّه كَذِبٌ مُؤَكدٌ بيمين.

وأمّا اليمين الغموس: هي التي يُقتطَعُ بها مالُ امرئ مسلم، فهي يمين منعقدة؛ لأنَّها مكتسبة بالقلب، معقودة بخبرٍ، مقرونة باسم الله تعالى، وكفارتُها التوبةُ إلى الله، وإرجاعُ الحقوقِ إلى أهلها، ليس لها كفارة إلا ذلك.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة السابعة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [سورة الأعراف:١٩٩-٢٠٠].

فإنَّه مما ينبغي على الصَّائم أنْ يتحلَّى به هو الخلقُ الحَسَن، إذْ أنَّ الصَّوم ليس فقط عن الطَّعام والشَّراب، ولكن تصوم مع ذلك الجوارح، العينان والأذنان، وأعظم ذلك اللسان، ولهذا أُمِرَ الصائم أنَّه إذا سابَّه أحدٌ أو شاتمه، أو ضاربه، أنْ يقابل ذلك بقولِ: «**إِنِّي صَائِمٌ**»، وأنْ يُعْرِض عن الجاهلين، فإنَّ الشَّيطانَ له نزغاتٌ، وخطواتٌ، نعوذ بالله من شره، (فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} "العُرْفُ": المعروف. حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عبيد الله بنُ عبد الله بن عتبة، أنَّ ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ فَتَسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَاسْتَأْذَنَ لِعُيَيْنَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ، قَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ، وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ، حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ، فَقَالَ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: {خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الجَاهِلِينَ، «**فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ**». انفرد بإخراجه البخاري.

وقد أخذ بعضُ الحكماءِ هذا المعنى، فَسَبَكَهُ في بيتين فيهما جِنَاسٌ فقال:

خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بعُرفٍ كَمَا ... أُمِرتَ وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينْ

وَلِنْ فِي الكَلامِ لِكُلِّ الأَنَامِ ... فَمُسْتَحْسَن مِن ذَوِي الجَاهِ لِينْ

قلت: وَلِينُ الكلام لكلِّ الأنام، ليس على إطلاقه، فقد أمر الله نبيَّهُ ﷺ أنْ يُغْلِظ القولَ على الكفَّار والمنافقين، ولكنَّ اللِّين له مواضع، والشِّدَّة والغِلظة لها مواضع.

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه الآية جامعةٌ لحسنِ الخُلُقِ مع النَّاس، وما ينبغي في معاملتِهم، فالذي ينبغي أنْ يعامل به النَّاس، أنْ يأخذَ العفوَ، أي: ما سمَحَت به أنفُسُهُم، وما سَهُلَ عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلِّفُهُم ما لا تسمحُ به طبائعُهُم، بلْ يَشْكُر مِن كلِّ أحدٍ ما قابلَه به، من قولٍ وفعلٍ جميلٍ، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوزُ عن تقصيرهم ويغضُّ طرفَهُ عن نقصِهِم، ولا يتكبَّرُ على الصغيرِ لصِغَرِهِ، ولا ناقصِ العقلِ لنَقْصِه، ولا الفقير لفقرِهِ، بل يُعَامِلُ الجميعَ باللُّطفِ والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورُهُم.

{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} أي: بكلِّ قولٍ حسنٍ، وفعلٍ جميلٍ، وخلقٍ كاملٍ للقريبِ والبعيدِ، فاجعلْ ما يأتي إلى النَّاس مِنْكَ، إما تعليمُ علمٍ، أو حثٌّ على خيرٍ، من صلةِ رحمٍ، أو برٍّ وَالِدَينِ، أو إصلاحٍ بين الناس، أو نصيحةٍ نافعةٍ، أو رأيٍ مصيبٍ، أو معاونةٍ على برٍّ

وتَقْوَى، أو زجرٍ عن قبيحٍ، أو إرشادٍ إلى تحصيلِ مصلحةٍ دينية أو دنيوية، ولمَّا كان لا بُدَّ مِن أذيةِ الجاهلِ، أمرَ اللهُ تعالى أنْ يُقَابَلَ الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهلِه، فَمَن آذاك بقوله أو فعله لا تُؤْذِه، ومَن حرمَكَ لا تُحْرِمْهُ، ومَن قَطعك فَصِلْهُ، ومَن ظَلَمَك فاعدلْ فيه.

وأمَّا ما ينبغي أن يُعَامِل به العبدُ شياطينَ الإنسِ والجنِّ، فقال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الآيات.

أي: أيُّ وقتٍ، وفي أيِّ حالٍ {يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ} أي: تحسُّ منه بوسوسةٍ، وتثبيطٍ عنِ الخيرِ، أو حثٍّ على الشَّرِّ، وإيعازٍ إليه. {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} أي: اِلتجئْ واعتصمْ بالله، واحْتَمِ بِحِمَاهُ فإنَّه {سَمِيعٌ} لِمَا تقول. {عَلِيمٌ} بِنِيَّتِك وضعفِك، وقوةِ التجائِكَ له، فَسيحميكَ مِن فِتَنتِهِ، ويَقِيكَ مِن وسوسته، كما قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} إلى آخر السورة. اهـ

فَما أحْوجَنَا إلى التحلِّي بالأخلاق الفاضلة، وتهذيبِ وتأديبِ النفوسِ التي تَصْبُو إلى الشَّرِّ والجهل، ومقابلةِ السيئة بأكبر منها وأعظم، ويا لله كم يحصلُ في هذا الشهر المبارك من بعضِ الناس من عدم ضبطٍ للنفس، ومِن سوء الخلقِ، فكم تحصل من الخلافات والخصومات والمشاجرات والمضاربات، في البيوت والأسواق والطرقات، لأتْفَهِ الأسباب، وأحقرِ الأشياء، فنسألك اللهمَّ أنْ تجنبنا منكراتِ الأخلاقِ والأهواءِ والأدواءِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين.

الوقفة الثامنة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [سورة يونس:٥٧-٥٨].

يقولُ تعالى مُمتنًّا على خلقهِ بما أَنزلَ إليهم من القرآنِ العظيم على رسوله الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} أي: زاجرٌ عَنِ الفواحشِ، {وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} أي: من الشُبَهِ والشُّكوكِ، وهو إزالةُ ما فيها مِن رِجْسٍ ودَنَسٍ.

وقال البغوي رحمه الله: أي: دواءٌ للجهلِ، لِمَا في الصُّدور. أي: شفاءٌ لعَمَى القُلوبِ، والصَّدر: موضع القلب، وهو أَعَزُّ موضعٍ في الإنسان لجوارِ القلبِ.

وقال القرطبي رحمه الله: قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما: فَضْلُ اللهِ: القرآن، ورحمته: الإسلام. وعنهما أيضًا: فضلُ الله: القرآن، ورحمتُه: أنْ جَعَلَكم مِن أهله.

وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة: فضلُ اللهِ: الإيمان، ورحمتُه: القرآن، على العكسِ من القول الأول. وقيل: غيرَ هذا.

{وَهُدًى وَرَحْمَةً} أي: مُحَصِّلٌ لها الهداية والرَّحمة من الله تعالى، وإنَّما ذلك للمؤمنين به والمصدِّقين الموقنين بما فيه، كَما قال تعالى: {وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودينِ الحقِّ، فليفرحوا، فإنَّه أولى ما يفرحون به، {هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} أي: من حطامِ الدُّنيا وما فيها من الزَّهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

فينبغي عليك أيُّها المسلمُ أنْ تفرح بهذه النِّعم العظيمة التي أنت فيها، والتي أعظمُها وأجلُّها على الإطلاق، نعمة الإسلام والسُّنَّة، والاستقامة على شرعِ الله تعالى كما أراد.

وكذا نعمةُ إدراكِ هذا الشَّهر الكريم، والموسمِ العظيم، وأنَّ الله أبقاكَ حتى تصوم هذا الشهر وتقومه، وتفعل الخير فيه، فقد روى الإمام أحمد في المسند (١٤٠٣) عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلَيْنِ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِسْلاَمُهُمَا جَمِيعًا، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْ صَاحِبِهِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتُشْهِدَ، ثُمَّ مَكَثَ الْآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ قَالَ طَلْحَةُ: فَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِهِمَا وَقَدْ خَرَجَ خَارِجٌ مِنْ الْجَنَّةِ، فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوُفِّيَ الْآخِرَ مِنْهُمَا، ثُمَّ خَرَجَ فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتُشْهِدَ، ثُمَّ رَجَعَا إِلَيَّ فَقَالَا لِي: ارْجِعْ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكَ بَعْدُ، فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ، فَعَجِبُوا لِذَلِكَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدَخَلَ هَذَا الْجَنَّةَ قَبْلَهُ فَقَالَ:« **أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً**»، قَالُوا: بَلَى، «**وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَهُ**» قَالُوا: بَلَى، «**وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا سَجْدَةً فِي السَّنَةِ**»، قَالُوا: بَلَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« **فَلَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**».

وهكذا أن تفرح بنعمةِ هذا القرآن، هذا النُّور العظيم، والهداية الكبرى، الذي يهدي لأحسن السُّبُل، وأقومُ الطُّرق، وإلى كلِّ خيرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الإسراء:٩].

هذا الكتاب المبارك، الذي من أخذَ به رَشَد، ومَن أعرضَ عنه عاشَ في ضنكٍ ونَكَد، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص:٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة طه:١٢٤]. الآيات

وأنْ تفرحَ بنعمةِ إكمالِ هذا الشهر، بصيامه وقيامه، وبما امْتَنَّ الله به عليك من الطاعات والعبادات، وكذا بِعِيدِ الفِطر بَعْدَه، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٥].

فينبغي أن يكونَ فرحُك بالعيد فرحًا شرعيًّا، وذلك بشكرِ الله تعالى على نعمهِ وآلآئه، ويكون باستعمالها في مرضاتِه ومَحَابِهِ، وبالاستمرارِ والمداومةِ على الأعمال الصالحة بعد رمضان في العِيد، وبعدَ العيد، حتّى يَتِمَّ لك الفرحُ الأكبرُ في يوم الوَعيد، فقد قال النبي ﷺ: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**». [متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه وهذا لفظ البخاري].

واحْذرْ أنْ يكون فرحُكَ فرحُ البَطِرين الأَشِرين، الذين يفرحون بمعصية الله تعالى، فكمْ من إنسانٍ يفرحُ إذا أصاب دمًا حرامًا، يفرح إذا زنى، يفرح إذا سرق، يفرح إذا ارتشى، يفرح إذا ظلم، يفرح إذا شاهد مقطعًا خليعًا، يفرح إذا تحصَّل على مالٍ حرام، يفرح إذا عصى الله تعالى بأيِّ معصيةٍ كانت.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [سورة القصص:٧٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} يعني المَرِحين. وقال مجاهد: يعني الأشِرِينَ البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

اللهمَّ اجعلنا في السَّراءِ لك شاكرين، وفي الضَّراءِ لك صابرين، وعند حصول الذنب تائبين مستغفرين، ونسألك نعيمًا لا ينفد، وقرةَ عينٍ لا تنقطع، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الوقفة التاسعة عشرة

مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [سورة يونس:٦١].

في هذه الآية الكريمة بيانٌ لسَعةِ إحاطةِ اللهِ تعالى وعلمِهِ بحالِ عبدِه، على أيِّ حالٍ كان، في كلِّ وقتٍ وحينٍ، مما يفيدُ العبد مراقبته لربِّه سبحانه في خلوتِه وجلوتِه، ولَيْلِهِ ونهارِهِ، وفي حضرِهِ وسفرِهِ، وفي بيتِهِ وسوقِهِ، في حالِ صومِهِ، أوفي حالِ فطرِهِ.

قال العلامة السَّعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: يخبرُ تعالى عن عمومِ مشاهدتِهِ، واطِّلاعِه على جميع أحوالِ العبادِ، في حركاتِهِم، وسكناتِهِم، وفي ضِمْنِ هذا، الدَّعوة لمراقبتِهِ على الدَّوام فقال: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} أي: حالٍ من أحوالِكَ الدينية والدُّنيوية.

قوله: {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ} أي: وما تتلو مِن القرآن، الذي أوحاهُ الله إليك.

وقوله: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} صغير أو كبير {إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} أي: وقتُ شُروعِكم فيه، واستمرارِكم على العملِ به.

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدُّوها على وجهِ النَّصيحةِ والاجتهاد فيها، وإيَّاكم وما يَكْرَهُ اللهُ تعالى؛ فإنَّه مُطَّلِعٌ عليكم، عالم بظواهرِكُم وبواطنِكم.

وقوله: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ} أي: ما يغيبُ عن علمِه، وسمعِه، وبصرِه، ومشاهدتِه {مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}

أي: قد أحاطَ به علمُهُ، وجرى به قلمُهُ. **وهاتان المرتبتان**، من مراتب القضاء والقَدَر، كثيرًا ما يُقْرِنُ اللهُ بينهما، وهما: العِلْمُ المحيط بجميع الأشياء، وكتابتُهُ المحيطة بجميع الحوادِث، كقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يخبرُ تعالى نبيّه ﷺ أنَّه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كلِّ ساعةٍ وأوانٍ ولحظةٍ، وأنَّه لا يعزبُ عن علمِه وبصره مثقالُ ذرةٍ في حقارتِها وصغرِها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين، كقوله: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}، فأخبر تعالى أنَّه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدَّوابّ السَّارحة، {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها} الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}، ولهذا قال تعالى: {ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه} أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءُونَ سامعون، ولهذا قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا سأله جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإحسان: «**أَنْ تَعبدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّه يَرَاكَ**». اهـ [متفق عليه عن أبي هريرة، ورواه مسلم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وإنَّ مِن الدروسِ العظيمة التي يستفيدها الصائم من هذا الشهر لهي مراقبةُ الله تعالى، فترى كثيرًا من الصائمين يكون الطعام والشَّراب بين يديه، وهو في الخُلوة ولكن يمنعه من الأكل والشرب مراقبة الله تعالى، والخوف منه، ولكنْ للأسفِ سُرعان ما

تختفي هذه المراقبة، عند بعضهم، في ليلِ رمضان! فإذا دخل الليلُ زَاوَلَ وعَمِلَ المنكرات والمعاصي، ولربَّما جاهر بالمعصية، فذابت تلك المراقبة وذهبت مع ذهاب النَّهار إلا عند مَن رَحِمَ الله، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله.

فإذا ذهبتْ المراقبةُ في ليلِ رمضان! مع قُرْبِ العهدِ بالصيام، وهو ليلٌ بين نَهَارَي صومٍ، فما بالُك إذا انقضَى رمضانُ كلُّه، ولهذا كَمْ وَكَمْ ترى في الأعياد من منكرات عظيمة؟ وكأنَّ الناس ما خرجوا من هذه العبادة -أعني عبادةَ الصوم-وما تضمنته من دروس عظيمة، والتي منها مراقبةُ الله تعالى.

وصدق رسول الله ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ**». رواه ابن ماجه وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فَتَذَكَّرْ أيُّها العبدُ أنَّ الله يراك، وأنَّ اللهَ مطلعٌ عليك، لا يعزبُ عنه مثقال ذرةٍ، ولا يخفى عليه مِن أمركَ شيءٌ، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [سورة هود:٥].

فأينَ أنت أيُّها العبدُ مِن مراقبةَ الله عزَّ وجل، في بيعِك وشرائِك، في دخولِك وخروجِك، في سمعِك وبصرِك؟ فإذا حصلت المراقبة لله تعالى، والخوف منه، فلنبشر بالخيرِ العظيم، فربَّما لا نحتاج إلى مشرفين ومراقبين في الأعمال، ولا يحتاجُ الناس إلى تلك الكيمرات التي يجعلونها للمراقبة، مع ما فيها مِن محذور تصوير ذواتِ الأرواح، ولا يُنْصَحُ بذلك، فلو تَمَكَّنَتِ مراقبةُ اللهِ تعالى في القُلوب لَمَا احْتَجنَا إلى ذلك كلِّه.

فَلَو راقبَ وليُّ الأمر ربّه في دَولَته، وراقبَ الوزيرُ ربَّه في وزارته، والمديرُ في إدارته، وكلُّ موظف في وظيفته، وكلُّ عامل في عمله، والمرأة في بيتها، وفي خارج بيتها، لصلحت أحوالُ العِباد، وكَثُرَ الخيرُ وقَلَّ الشَّرُّ والفساد.

نسألُ اللهَ التوفيق والسَّداد، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى آله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة العشرون

مع قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ [سورة الواقعة:٧٥-٨٢].

قَوْلُه تعالى: {فلا أقْسِمُ} {لا} **للتنبيهِ والتَّوكيدِ، وليست للنَّفي**؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ القَسَم وليس نَفْيُهُ، وهذا كقوله تعالى: {لا أقسم بهذا البلد} وقولِه تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة} وقولِه تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون} وأمثال ذلك يؤتى بـ (لا) بصورة النفي، والمراد بذلك التَّوكيد والتَّنْبيه. (عثيمين).

وقيل: **يُؤتَى بِها في أوَّلِ القَسَم إذا كان مُقْسمًا به على مَنفيٍّ**، كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "**لا واللهِ ما مَسَّتْ يَدُ رسول الله** ﷺ **يَدَ امرأةٍ قَطُّ**" وهكذا هاهنا تقدير الكلام: "لا أقْسِمُ بمواقع النجوم (ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنَّه سحرٌ أو كهانةٌ، بل هو قرآنٌ كريمٌ)". (ابن كثير).

وقيل: معنى قوله: {فَلا أُقْسِمُ} فليس الأمرُ كما تقولون، ثُمَّ استأنف القَسَمَ بعدَ فقيل: أُقْسِمُ.

والقَسَمُ: تأكيدُ الشيءِ بذكر معظم بأدواتٍ مخصوصةٍ، وهي الواو والباء والتاء.

فهذا قَسَمٌ من الله عزَّ وجل، واللهُ يُقْسِمُ بما شاء مِن خَلْقه، وهو دليلٌ على عظمته.

واختلفوا في معنى قوله: {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، فقال حكيمُ بن جُبَيْر، عن سعيد بن

جُبَيْر، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما يعني: **نجوم القرآن**؛ فإنه نزل جُملةً ليلةَ القدر من السماء العُليا إلى السماء الدُّنيا، ثُمَّ نزل مُفَرَّقًا في السنين بَعْدُ. ثُمَّ قرأ ابنُ عباس رضي الله عنهما هذه الآية.

وقال مجاهدُ: {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} في السماءِ، ويقالُ: مطالُعُها ومشارقُها. وكذا قال الحسن، وقتادة، وهو اختيار ابنِ جرير. وعن قتادة: مواقعُها: منازلُها.

قال السَّعدي: أقْسَمَ تعالى بالنِّجوم ومواقعِهَا أي: مساقطُهَا في مغاربِها، وما يُحدِثُ اللهُ في تلكَ الأوقاتِ، مِن الحوادثِ الدالة على عظمتِه وكبريائِه وتوحيدِه.

ثُمَّ عظَّم هذا المُقْسَمَ به، فقال: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} وإنَّما كان القَسَم عظيمًا، **لأنَّ في النُّجوم وجريانِها، وسقوطِها عند مغاربِها، آياتٍ وعِبَرًا لا يمكنُ حَصْرُها.**

وقوله: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} أي: وإنَّ هذا القَسَم الذي أقسمتُ بِهِ لَقَسَمٌ عَظيمٌ، لو تعلمونَ عظمتَه، لعظَّمْتُم المقسَم به عَليهِ.

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} أي: إنَّ هذا القرآن الذي نزَلَ على محمدٍ لكتابٌ عظيمٌ.

قال العلامة العثيمين رحمه الله: وهو كَريمٌ-أعني القرآنَ كريمٌ في:

١- ثوابِهِ، فالحرفُ بحسنةٍ، والحسنةُ بعشرةِ أمثالِها.

٢- وهو كريمٌ في آثارِه على القلوبِ وصلاحِها، فإنَّ قراءة القرآن تليِّنُ القلوبَ، وتوجبُ الخشوعَ للهِ -عزَّ وجل-.

٣- وكريمٌ في آثارِه بدعوةِ النَّاسِ إلى شريعةِ اللهِ، كما قال تعالى: {فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا}، فالمُهِمُّ أنَّ القرآنَ كريمٌ بكلِّ معنى الكَرَم.

قال السَّعدي رحمه الله: وأما المقسم عليه، فهو إثباتُ القرآن، وأنَّه حقٌّ لا ريبَ فيه، ولا شَكَّ يَعْتَرِيهِ، وأنَّه كريمٌ أي: **كثيرُ الخيرِ، غزيرُ العلمِ، فكلُّ خيرٍ وعلمٍ**، فإنَّما يستفادُ

من كتابِ اللهِ ويستنبطُ مِنهُ.

وقوله: {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ} أي: مستورٌ عن أعينِ الخلقِ، وهذا الكتابُ المكنونُ هو اللَّوحُ المحفوظ أي: إنَّ هذا القرآن مكتوب في اللَّوحِ المحفوظِ، معظَّمٌ عندَ اللهِ وعندَ ملائكتهِ في الملإِ الأعلى.

ويحتمل أنَّ المراد بالكتاب المكنون، هو الكتابُ الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله وأنَّ المراد بذلك أنَّه مستورٌ عن الشياطينِ، لا قُدرةَ لهم على تغييرِهِ، ولا الزيادةِ والنقْصِ مِنْهُ واستراقِه. اهـ

قوله: {لا يمسُّه} أي: لا يمسُّ هذا الكتابَ المكنونَ {إلا المطهرون} وهم الملائكةُ طَهَّرَهُم اللهُ تعالى من الشِّركِ والمعاصي، ولهذا لا تقعُ مِن الملائكةِ معصيةٌ، بل هُم ممتثلونَ لأمرِ اللهِ قائمونَ به على ما أرادَ اللهُ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى قولٍ غريبٍ، وقالوا: المراد بقوله: {لا يمسُّه إلا المطهرون } أي لا يمسُّ القرآنَ إلا طَاهرٌ، ولكنَّ هذا قولٌ ضَعيفٌ لا تدلُّ عليه الآيةُ، لأنَّه لو كانَ المرادُ ذلكَ لقالَ: (إلا المتطهرون) يعني المتطهرينَ، ولكنَّه قال: {المُطهَّرون } أي مِن قِبَلِ اللهِ – عزَّ وجل –، فهذا القولُ ضعيفٌ، ولولا أنَّه يوجدُ في بعضِ التفاسيرِ التي بأيدي النَّاسِ ما تعرَّضْنَا له، لأنَّه لا قيمةَ لَهُ، **والصَّوابُ**: أنَّ المراد بذلك الملائكة، فإنْ قلنا: إنَّ المراد بالكتابِ المكنونِ الصُّحف التي بأيديهم فواضحٌ في قوله: {لا يمسُّه إلَّا المطهرون }، وإذا قيل: المرادُ به اللَّوحُ المحفوظُ فكذلك المطَهَّرون قد يمسُّونه بأمرِ اللهِ – عزَّ وجل –، وقدْ لَا يَمَسُّونَهُ. (عثيمين).

قوله: {تنزيل من رب العالمين} أي: هذا القرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين، نَزَلَ مِن عند الله –عزَّ وجلَّ–؛ لأنَّه كلامُه، وكلامُ اللهِ تعالى منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أنَّ القرآن ليس بمخلوقٍ؛ لأنَّه نَزَلَ مِن اللهِ فهو كلامُهُ، وكلامُهُ من صفاتِه تعالى، وصِفاتُه غيرُ مخلوقةٍ، وفي قوله: {تنزيلٌ من ربِّ العالمين} إشارة إلى أنَّه يجب علينا أنْ نعملِ به؛ لأنَّ الذي أنزلَهُ هو الرَّبُّ المطاعُ الخالقُ الرَّازقُ، الذي يجبُ أنْ نطيعَهُ بما أَمَرَ، وننتهي عمَّا نَهَى عنهُ وزَجَرَ، و{العالمين} كلُّ مَن سِوى اللهِ، وسُمُّوا عَالَمين؛ **لأنَّهم عَلَمٌ عَلى خالقِهِم**، فإنَّ هذا الخلق إذا تأمَّلَهُ الإنسانُ دَلَّهُ على مَا للهِ - عزَّ وجل - مِن عظمةٍ وسلطانٍ ورحمةٍ، وغيرِ ذلك من صفاتِه.

{أفبهذا الحديث أنتم مدهنون} يعني أبَعْدَ هذا البيان لعظمة القرآن الكريم تُدْهِنُونَ به الكفَّار، وتَسكتُون عن بيانِه وعنِ العملِ به، الواجبُ أنْ يُصَارِحَ ويُصرِّحَ ولا يُداهِنَ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى في آياتٍ أُخرى: {وَدُّوا لو تُدْهِنُ فَيدْهِنُون} ولكنْ هذا ليس بحاصلٍ، فالواجبُ على المؤمنِ أنْ يَبرُزَ بِدِينه ويفتخرَ به ويُظْهِرَه، خلاف ما كان عليه كثيرٌ مِن النَّاس اليوم مع الأسف، تجدُ الرَّجُلَ منهم إذا قامَ ليصلِّي يستحِي أنْ يُصلِّيَ، ورُبَّمَا يُداهِنُ ويؤخِّرُ الصلاةَ عن وقتِها؛ موافقةً لهؤلاء الذينَ لا يُصَلُّونَ، وهذا غلطٌ عظيمٌ، بل الواجبُ أنْ يكونَ الإنسانُ صريحًا فلا يُداهِنُ في دينِ اللهِ - عزَّ وجل -.

{وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} أي: تجعلونَ عطاءَ الله إيَّاكم تكذيبًا له كما قال - عزَّ وجل -: {يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها} ومن ذلك أنْ ينسِبَ الإنسانُ نعمةَ اللهِ - عزَّ وجل - إلى السَّببِ متناسيًا المُسَبِّب سبحانه وتعالى، كقولِهِ مثلاً: مُطرنا بنوءِ كذا.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الحادية والعشرون

مع قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الواقعة:٨٨-٩٦].

ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ مآلَ مَن حَضَرَتْهُ سكراتُ الموتِ؛ ليفارق هذه الدُّنيا، -وكلُّنا ذلك المفارق-قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة العنكبوت:٥٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه الأحوالُ الثلاثة هي أحوالُ الناسِ عند احتضارِهم: إمَّا أنْ يكونَ مِن المقربين، أو يكون ممَّن دونهم من أصحابِ اليمين. وإمَّا أنْ يكونَ من المكذبين الضَّالِّين عن الهدى، الجاهلين بأمرِ الله؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ} أي: المُحْتَضِرُ، {مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، وهُمُ الذين فعلوا الواجباتِ والمستحباتِ، وتركوا المحرماتِ والمكروهاتِ وبعضَ المباحاتِ، {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} أي: فَلَهُم رَوحٌ ورَيحانٌ، وتبشِّرُهم الملائكةُ بذلك عند الموتِ، كما في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ ملائكة الرَّحمة تقول: **"أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيبة في الجسدِ الطيِّب كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، اُخْرُجي إلى رَوحٍ وَرَيحانٍ، وربٍّ غيرِ غَضْبَان"**.

وعنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {فَرَوْحٌ} يقول: رَاحةٌ، وريحانٌ، يقول: مُسْتَرَاحَة.

قال أبو العالية: لا يُفارَقُ أحدٌ مِن المُقَرَّبين حتى يُؤْتَى بغصنٍ مِن ريحانِ الجنَّةِ،

فيقبض رُوحَه فيه.

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: ثُمَّ قَسَّمَ اللهُ تعالى المحتضرينَ إلى ثلاثة أقسام فقال في:

القسم الأول: {فأمَّا إنْ كان من المقربين فروحٌ وريحانٌ وجنتُ نعيم} -اللهُمَّ اجعلنا منهم -وهم الذين أتوا بالواجباتِ، وتركوا المحرماتِ، وأتوا بالمستحباتِ، وتنزَّهُوا عن المكروهاتِ، أي: أكملوا دينَهم، والمقربون هم السَّابِقون، الذين ذكروا في أول السورة، السابقون إلى الخيرات.

وقوله: {فروحٌ وريحانٌ وجنتُ نعيم} اختلف المفسرون -رحمهم الله-في قوله: {فرَوحٌ}، فقيل: فَرَاحةٌ، لأنَّ المؤمن وإنْ كان يكره الموتَ لكنه يَستَريحُ بهِ، لأنَّه يُبَشَّرُ عندَ النَّزْعِ برَوحٍ وريحانٍ، وربٍّ غيرِ غضبان، فَيُسَرُّ ويَبْتَهِجُ، ولا يكرهُ الموت حينئذٍ بل يحبُّ لقاءَ اللهِ - عزَّ وجل -، وهذا لا شَكَّ راحةٌ لَهُ من نَكَدِ الدُّنيا ونَصَبِها وهُمومِها، وقيل: الرَّوح بمعنى الرَّحمة، كما قال الله تعالى عنْ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال لبنيه: {يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تايئسوا من روح الله } أي: من رحمته، وهذا المعنى أعمُّ مِن الأول، لأنَّ الرَّحمة أعمُّ مِن أن تكونَ راحةً، أو راحةً مع حصول المقصود، وإذا كان المعنى أعمُّ كان حَمْلُ الآيةِ عليه أَوْلَى، إذَنْ {فرَوح} أي: رحمةٌ، ومِن الرَّحمةِ الرَّاحة.

{وريحانٌ} قيل: المرادُ بالرَّيحانِ: **كلُّ مَا يَسُرُّ النَّفسَ، وليسَ خاصًّا بالريحانِ ذي الرَّائحةِ الطَّيبةِ**، بل كلُّ ما فيه راحةُ النَّفْسِ ولذَّتُها من مأكولٍ، ومشروبٍ، وملبوسٍ، ومنكوحٍ ومشمومٍ، فهو شاملٌ، وقيل: المراد بالرَّيحان الرائحةِ الطيبةِ كالرَّيحان المعروفِ، والأولُ: أشملُ فَتُحْمَلُ الآيةُ عليه.

{وجنتُ نعيم} أي: جَنَّةٌ يَنْعَمُ بِها، وهي الدَّارُ التي أعدَّها اللهُ لأوليائه -جعلَنَا الله منهم-يَنْعَمُ الإنسانُ فيها ببدَنِه وقلبِه، فهو لا يتعبُ ولا يَنْصَبُ، ولا يَمْرضُ ولا يَحزَنُ، ولا يَهتَمُّ ولا يَغْتَمُّ، بلْ هو في نعيمٍ دائمٍ، والدُّنيا فيها نعيمٌ، لكنَّه نعيمٌ منغَّصٌ على حَدِّ قولِ الشَّاعر:

فيومٌ عَلَينَا ويومٌ لَنَا ... ويومٌ نُسَاءُ وَيومٌ نُسَرُّ

وهكذا الدنيا إذا سرَّت يومًا فاستعدْ للإساءةِ من غَدٍ، وإذا أساءت يومًا فقدْ تَنْعمُ في الثاني، أوْ لا تَنْعَم، أمَّا الجنَّة في الآخرة فهي دار نَعِيمٍ في القلب ونعِيمٍ في البَدَن.

القسم الثاني: {وإما إن كان من أصحاب اليمين} وهم الذين أتوا بالواجباتِ وتركوا المحرماتِ، لكنَّ فيهم نقصًا في المستحباتِ والتَّنَزُّه عن المكروهات {فسلام} أي: سَلامةٌ {لك} أي: أيها المُحْتَضِر {من أصحاب اليمين} أي: أنت من أصحابِ اليمين، والمعنى: فسَلامٌ لك حالَ كونِك مِن أصحابِ اليمين، والأوَّلون: هم المقربونَ إليهم، وأصحابُ اليمين: لا سابقينَ ولا مخذولين، بَيْنَ بَيْنَ، لكنهم نَاجُونَ من العذاب، ولهذا قال: {فسلام لك من أصحاب اليمين}.

أما القسم الثالث: {وأما إن كان من المكذبين } بالخَبرِ {الضالين} في العملِ، فلا تصديقٌ ولا التزامٌ، فكلُّ كافرٍ داخلٌ في هذه الآية حتَّى المنافق {فنزلٌ من حميم } أي: فَلَهُ نُزُلٌ مِن حَميمٍ، **والنُّزُلُ**: بمعنى الضَّيافة التي تُقدَّمُ للضيفِ أوَّل مَا يَقْدُم، فهؤلاء - والعياذُ باللهِ - حظُّهُم هذا النُّزُل، نُزُلٌ مِن حَميمٍ، **والحَميمُ**: هو شديدُ الحرارةِ، {وتصليةُ جحيم } أي يَصْلُونَ الجَحيمَ فيخلَّدُونَ فيها، والجحيمُ من أسماء النَّار - أعاذنا اللهُ وإيَّاكم منها - {إنَّ هذا لهو حقُّ اليقين } أي: إنَّ هذا المذكورُ لكم، وهو انقسامُ النَّاس إلى هذه

الأقسام الثلاثة {لهو حقُّ اليقين } أي: اليقين المُتَحَقَّق المتأَكَّد، وصدَقَ الله -عزَّ وجل- لا يمكن أنْ يخرجَ النَّاسُ عن هذه الأقسامِ الثلاثة. وهم المقربونَ، وأصحابُ اليمينِ، والمكذبونَ الضَّالُّون، لا يمكن يخرجوا عن هذا، {فسبِّح باسم ربك العظيم} سَبِّحْ بمعنى نَزِّهْ، والذي يُنَزَّهُ اللهُ -عزَّ وجل-عَنْهُ، كلّ نقصٍ وعيبِ، أو مماثلةٍ للمخلوق، فَهو مُنَزَهٌ عن كلِّ نقصٍ لكمالِ صفاتِه، وعن مماثلةِ المخلوقِ، قال الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وقال: {ولقد خلقنا السماوات والأَرض وما بينهما في ستة أيام وما مَسَّنَا من لغوب} أي: مِن تعبٍ وإعياءٍ.

وقوله: {باسم ربك} الباء للمصاحبة يعني سبِّحِ اللهَ تسبيحًا مصحوبًا باسْمِه أي: تقول: سبحانَ اللهِ. قلت: ولا يُسَبِّحُ إذَا كانَ في الصَّلاةِ سِوَى صَلاةِ الليل.

{ربِّك العظيم} **الربُّ**: هو الخالقُ المالكُ المُدَبِّرُ، ذو العَظَمةِ والجلالِ ﷻ.

هذه السُّورة لو لم يَنْزِلْ في القرآنِ إلَّا هي، لكانت كافيةً في الحثِّ على فعلِ الخيرِ، وتَرْكِ الشَّرِّ، فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى في أولها يومَ القيامةِ {إذا وقعت الواقعة } ثُمَّ قَسَّم النَّاس فيها إلى ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحابُ اليمين، وأصحابُ الشمال، ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ في آخرِها حَالَ الإنسانِ عندَ الموتِ، وقَسَّمَ كلَّ النَّاسِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مقرَّبونَ، وأصحابُ يمينٍ، ومكذبونَ ضَالُّون، وكذلك ذَكَرَ اللهُ فيها ابتداءَ الخلقِ في قوله: {أفرءيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون}، والرِّزق من طعامٍ وشرابٍ وما يصلحهما، فهي سورة متكاملة، ولهذا ينبغي للإنسانِ أنْ يتدبَّرها إذا قَرأَها، كما يتدبَّر سائرَ القُرآنِ، لكنْ هي اشتملتْ على معاني عظيمةٍ، واللهُ الموفقُ. اهـ.

الوقفة الثانية العشرون

مع قول الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [سورة الحديد: ٢٠].

مِن المعلومِ والمتعَينِ أنَّ مُوجدَ الشيءِ أدْرَى به مِن غيرِهِ، وصانعَ الشَّيءِ أعلمُ بهِ مِن غيرِهِ، واللهُ سبحانه وتعالى خالقُ كلِّ شيءٍ، فهو الذي خلقَ الدُّنيا وهو أعلمُ بِها سُبحانه وتعالى، ولهذا قال لَنَا واصفًا لها ومبينًا لحالِهَا ومآلِهَا: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾ الآية.

فالدُّنيا خمسةُ أشياء:

١- اللَّعبُ: بالجوارحِ، بأنْ يعملَ الإنسانُ أعمالاً تصدُّهُ عن ذكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ.

٢- وأمَّا اللهو: بالقلوبِ فهو الغفلةُ، وهذا أشدُّ وأعظمُ، وغفلةُ القلبِ -أعاذنا الله منها وأَحْيَا قلوبَنَا- غفلةٌ عظيمة تفقدك جميع لذاتِ الطَّاعةِ، وتُحْرِمُكَ من جميعِ آثارِها، لقول الله تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه} ولم يقل: لا تُطِعْ مِن أسكتنا لِسَانَهُ، بل قال: {من أغفلنا قلبه}، وما أكثر ذِكْرَنَا باللِّسانِ مع

غفلة الجَنَان، وهذا لا شَكَّ أنَّه يُنْقِصُ الثوابَ، ويُنْقِصُ الآثارَ المترتبةَ على الذِّكرِ مِن صلاحِ القلبِ، والاتجاهِ إلى الله، والإنابةِ إليه، وغير ذلك.

٣- {وزينة} أي: زينةٌ بالملابسِ، وزينةٌ بالمراكبِ، وزينةٌ بالمساكنِ، وزينةٌ في كلِّ شيءٍ... .

٤- {وتفاخرٌ بينكم} أي: كلُّ واحدٍ يفخرُ على الثاني، إما بالقبيلةِ، أو بالعلمِ، يكون هذا عندَهُ عِلمٌ بالطبِّ، وهذا لا يَعرِفُ، وهذا علْمُهُ بالهندسةِ، وهَذا لا يَعرِفُ، فيفخر عليه، **وأقبحُ مِن ذَلك التفاخرُ بالعلمِ الشَّرعِي**، لأنَّ العِلمَ الشَّرعي يجبُ على الإنسانِ إذا اكتسبَه، ومَنَّ اللهُ عليه بِهِ أنْ يزْدادَ تواضعًا، وأنْ يعرف نَفْسَهُ وقَدْرَ نَفْسِهِ، ومِن ذلك ما يحصلُ بينَ الشُّعراءِ في بعضِ الأحيانِ من التَّطاولِ على الآخرينَ، ومن التفاخرِ كما يوجدُ في بعضِ الأفراحِ، وبعضِ المناسباتِ ممَّا نَسْمَع. (عثيمين).

٥- {وتكاثرٌ في الأموال والأولاد}: لأنَّ عادةَ الجاهلية أنْ تتكاثرَ بالأبناءِ والأموالِ، وتَكَاثُرُ المؤمنينَ بالإيمانِ والطاعةِ. (قرطبي)

وقوله: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} أي: يعجب الزُّراع نبات ذلك الزَّرع الذي نَبُتَ بالغيثِ؛ وكما يُعْجِبُ الزَّراع ذلك، كذلك تعجبُ الحياةَ الدنيا الكفارُ، فإنَّهم أحرصُ شيءٍ عليها وأميلُ النَّاس إليها.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الكفَّارُ هنا: الزُّراع لأنَّهم يغطونَ البَذَر.

وقيل: الكفَّار هنا الكافرون باللهِ -عزَّ وجل-؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بزينةِ الدنيا من المؤمنين. وهذا قولٌ حسنٌ، فإنَّ أصلَ الإعجابِ لَهم وفيهَم، ومنْهُم يظهرُ ذلك، وهو التعظيمُ للدُّنيا ومًا فيها.

{ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا } أي: يهيجُ ذلك الزَّرعُ فتراه مُصفرًّا بعدَ ما كان خَضِرًا نَضِرًا، ثُمَّ يكونُ بعد ذلك كلِّه حُطامًا، أي: يصيرُ يَبَسًا متحطِّمًا، **هكذا الحياةُ الدنيا** تكون أوَّلًا شابَّة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، **والإنسان كذلك** في أول عُمُرِهِ وعُنْفُوانِ شَبَابِهِ غضًّا طريًّا ليِّنَ الأعطافِ، بهيِّ المنظرِ، ثُمَّ إنَّه يَشْرعُ في الكُهُولة فتتغير طِبَاعُه وَيَنْفَدُ بعضُ قُواهُ، ثُمَّ يكبِّرُ فيصيرُ شيخًا كبيرًا، ضعيفَ القُوى، قليلَ الحَرَكةِ، يُعْجِزُهُ الشيءُ اليسيرُ، كما قال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } [الروم: ٥٤]. ولمَّا كان هذا المَثَلُ دالًّا عَلى زَوالِ الدُّنيا وانقضائِها وفراغِها لا محالةَ، وأنَّ الآخرةَ كائنةٌ لا محالةَ، حَذّرَ مِن أمرِهَا ورغَّبَ فيما فيها مِن الخيرِ، فقال: {وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} أي: وليس في الآخرةِ الآتيةِ القريبةِ إلَّا إمَّا هذا، وإمَّا هذا: إمَّا عذابٌ شديدٌ، وإمَّا مغفرةٌ من اللهِ ورضوان.

وقوله: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} أي: هي متاعٌ فَانٍ غَارٍّ لمنْ رَكِنَ إليه، فإنَّه يَغترُّ بها وتعجِبُهُ، حتى يعتقدَ أنَّه لا دَارَ سِواهَا ولا مَعادَ وراءَها، وهي حقيرةٌ قليلةٌ بالنِّسْبَة إلى الدَّار الآخرةِ. اهـ (ابن كثير)

الوقفة الثالثة والعشرون

مع قول الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [سورة الحديد:٢١].

و نحوها قوله: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [سورة آل عمران:١٣٣].

بعد أنْ بَيَّنَ اللهُ تعالى لَنا حقيقةَ الحياةَ الدنيا في الآيةِ السَّابقةِ، ومآلَها، وحذَّرَنا من الاغترارِ بِها، والتنافس عليها، دلَّنَا وأرشدنا إلى المسابقة والمسارعةِ والمنافسةِ إلى دارٍ باقيةٍ ونعيمٍ دائمٍ، وقرةِ عينٍ لا تنقطعُ، وحياةٍ أبديةٍ سَرْمديةٍ، لا موتَ فيها ولا فناءَ، ولا زوالَ ولا انتقالَ، فإليها تتوجَهُ الهِمَمُ، وتُقْبِلُ القلوبُ، وتُشَّدُ العزائمُ، وتُقْضَى الأعمار، وتُنْفَقُ الأموالُ.

فقال تعالى: {سابقوا}: أمر بالمسابقةِ، وقد جاءَ الأمرُ في الآيةِ الأخرى بالمسارعةِ فيجمعُ الإنسانُ بَينَ **المسابقةِ**: وهي شِدَّةُ العَدْوِ في حَالِ السَّيرِ، وبين **المسارعةِ**: وهي المبادرةُ إلى فعلِ الخير. (عثيمين)

قوله: {إلى مغفرة من ربكم} **وذلك بفعلِ أسبابِ المغفرةِ**، ومِن أسباب المغفرة **أنْ تسألَ اللهَ المغفرة**، تقول: (اللَّهمَّ اغفر لي)، أو تقول: (أَستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه)، ومن أسبابِ المغفرةِ **فعلُ مَا تكونُ بهِ المغفرةُ**، كقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا**

وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[١]، وكقول النَّبيِّ ﷺ فيمن توضأ فأسبغ الوضوء ثم صلَّى ركعتين لا يحدِّثُ بهما نفسَهُ، «**غَفَرَ اللهُ بِهِما مَا تقدَّمَ مِن ذَنْبِه**»، وكقوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»[٢] . والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ. (عثيمين)

قوله: {أُعِدَّتْ} أعدَّها الله -عزَّ وجل -كما قال -عزَّ وجل-: {أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار}، ومعنى الإعدادِ: التهيئةُ للشَّيءِ.

وقوله: {للذين آمنوا بالله} آمنوا بالله، وبِكلِّ ما أوجبَ اللهُ الإيمانَ به، مِن الإيمانِ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبهِ، واليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ.

وقوله: {ورسله} يَشْملُ جميع الرُّسلِ الذين أولُهم نوحٌ، وآخرُهُم محمدٌ عليهم الصَّلاة والسَّلام، لكنْ إيمانَنَا بالرُّسل يختلفُ عن إيمانِنا بمحمدٍ ﷺ، فإيمانُنَا بالرُّسلِ بأنْ نُؤمنُ: **بأنَّهم صادقونَ مبلغونَ عن اللهِ، ونؤمنُ بكلِّ ما صَحَّ مِن أخبارِهم**، أمَّا اتِّبَاعُهُم فلا اتِّباعَ إلا للنَّبيِّ ﷺ، فَهم يشتركونَ معَ الرَّسولِ بأنْ نؤمنَ بأنَّهم صادقونَ، وأنَّ كلَّ ما أخبروا به صدقٌ، وأنَّ كلَّ ما جاءوا به فهو عدلٌ ومناسبٌ لأحوالِ أُممِهم في وقتِهم، أمَّا الاتِّباع فلا نتَّبعُ إلا واحدًا منهم، وهو محمدٌ ﷺ.

وقوله: {آمنوا بالله ورسله} **يدلُّ على أنَّ أهلَ الكتابِ اليهودَ والنَّصارى ليسُوا مِن أهلِّ الجنَّة**، لأنَّهم لم يؤمنوا برسلِ اللهِ، والدليلُ أنَّهم كفروا بمحمدٍ ﷺ، والكافرُ برسولٍ من الرسلِ كافرٌ بالجميع، كيفَ وقد جاءَ محمدٌ ﷺ بنسخِ جميعِ الشرائعِ السَّابقةِ،

---

[١] البخاري(٣٨، ٢٠١٤)، مسلم (٧٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] البخاري (٦٤٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله – عزَّ وجل –: {كذبت قوم نوح المرسلين } مَع أنَّه لم يسبقْ نوحًا أحدٌ مِن الرُّسلِ؛ لأنَّ مَن كذَّب رَسولاً مِن الرُّسلِ فقدْ كذَّبَ جميعَ الرسلِ، فكيفَ بمن كذَّبَ محمدًا ﷺ الذي نَسَختْ شريعتُه جميعَ الشرائعِ، والذي قال الله فيه: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيِّن لما ءاتيتكم مِن كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لِما مَعَكم لتؤمنُنَّ به} أخذَ ميثاقَ النبيِّن كلِّهم. {قال ءأقْرَرْتُم وأخذتُم على ذلكُم إِصْري قالوا أقْرَرْنَا} وهذا الرُّسولُ هو: محمدٌ ﷺ، و الرُّسلُ كلُّهم يؤمنونَ بالرَّسولِ ﷺ، ولهذا في ليلةِ الإسراءِ كان محمدٌ ﷺ إمَامُهم في صلاتِهم، فاليهودُ والنَّصارى ليسُوا من أهلِ الجنَّةِ بعدَ بعثةِ الرَّسولِ ﷺ ، لأنَّهم لم يؤمنوا بِرُسُلِه، لأنَّهم كفروا بمحمدٍ، بلْ هم كفروا برسلِهم أيضًا، لقوله تعالى: {كذَّبتْ قومُ نوحٍ المرسَلِين }؛ ولأنَّ عيسى ابنَ مريمَ عليه السلام بشَّرَهُم بمحمدٍ ﷺ، قال اللهُ – عزَّ وجل – في سورةِ الصَّفِ: {وإذ قال عيسى ابنُ مريمَ يا بَنِي إسرائيلَ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم مصدِّقًا لِمَا بيَّن يدي مِن التَّوراة ومبشِّرًا برسولٍ يأتي مِن بعدي اسمُه أحمد} فلمَّا جاءَهم هذا الرسولُ الذي بشَّر به عيسى، قالوا: هذا سحرٌ مُبينٌ، وكفروا بِه، فَهُم كفروا بعيسى وردُّوا بِشَارتَه وأنكرُوها، ولا يجوزُ لَنَا أبدًا أنْ نقولَ أو نعتقدَ أنَّ أديانَ اليهودِ والنَّصارى اليومَ أديانٌ صَحيحةٌ أبدًا، بلْ هي أديانٌ باطلةٌ، غيرُ مقبولةٍ عند الله، كَما قالَ اللهُ – عزَّ وجل –: {ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ دينًا فلنْ يُقبَل منه}.

قوله: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء} أي ما أعدَّ اللهُ لهؤلاءِ المؤمنينَ باللهِ ورسلِهِ فضلُ اللهِ في أنَّهم آمنوا باللهِ وآمنوا برسلِه واتبعوا الرَّسولَ ﷺ أثيبوا بهذهِ الجَنَّات.

قوله:{يؤتيه مَن يشاءُ} **المشيئةُ هُنا مقترنةٌ بالحكمةِ، يعني مَن كانَ أهلاً للفضلِ آتاهُ اللهُ الفضلَ، ومَن لم يكنْ أهلاً لَه لم يُؤْتِهِ**، والدليلُ قولُ اللهِ – تباركَ وتعالى –: { ٱللَّهُ أَعۡلَمُ

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} فلنْ يجعل رسالتَهُ إلا فيمَن هو أهْلٌ لهَا، وقال اللهُ - عزَّ وجل - {فلمَّا زاغُوا أزاغ اللهُ قلوبَهم} وقال - عزَّ وجل -: {فإنْ تولَّوا فاعلم أنَّما يريدُ اللهُ أنْ يصيبَهم ببعضِ ذنوبِهم وإنَّ كثيرًا مِن الناسِ لفاسقون } فلا تظنُّ أنَّ اللهَ يُعْطِي الفضلَ لمنْ شاءَ بدونِ سببٍ، لَابُدَّ مِن سببٍ، فمتى عَلِم اللهُ في قلبِ الإنسانِ خيرًا آتاه الخيرَ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾. فأصلِحْ قلبَكَ فيما بينَكَ وبينَ اللهِ تَجِدِ الخيرَ كُلَّه.

قوله: {والله ذو الفضل العظيم}، أي: صاحبُ الفضلِ العظيمِ -عزَّ وجل-، فلا أحدٌ أعظمَ مِنَّةً مِن اللهِ تعالى، أوجَدَكَ مِن العدمِ، وأَعَدَّكَ وأمدَّكَ بالنعمِ، يَسَّرَ لك الهُدى، فلا أحدٌ أعظمَ مِنَّةً مِن اللهِ، ولهذا قالَ اللهُ -عزّ وجل-: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ١٧﴾، ولمَّا جمعَ النَّبيُّ ﷺ الأنصارَ في غزوةِ حنينٍ حِينَ قَسَّمَ الغنائمَ بينَ المؤلفةِ قلوبِهم كانَ يُقَرِّر عليهم قالَ لهم: «**أَلَمْ أَجِدْكُم ضُلاَّلاً فَهَدَاكُم اللهُ بِي**»؟ قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. قال: «**أَلَمْ أَجِدْكُم مُتفرقينَ فألَّفَ اللهُ قلوبَكُم بِي**»؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ. كُلَّما قالَ قولاً قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ. يعني أعْظَمُ مِنَّةً، **فالحاصلُ**: أنَّ اللهَ تعالى ذُو الفضلِ العظيمِ، ولكنْ يُؤتي فضلَه مَن هو مستحِقٌّ له، كما قال -عزَّ وجل-: {ويُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَه}.

اللهمَّ إني أسألُكَ مِن فضلِكَ العظيمِ أنْ تهدي قلوبَنا وتُصْلِحَ أعمالَنَا، وتَخْتِمَ لَنَا بِخيرٍ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٍ. (عثيمين).

الوقفة الرابعة والعشرون

مع قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾ [سورة الجمعة].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الفَرَّاء: يقال الجُمْعَة "بسكون الميم" والجُمُعَة "بضم الميم" والجُمَعَة "بفتح الميم" فيكونُ صفةَ اليومِ؛ أي تجمعُ النَّاسَ.

و"مِن" بمعنى "في"؛ أيْ في يومِ؛ كقوله تعالى: {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ} أي في الأرضِ.

قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} خطابٌ لجميعِ المكلفين، ويخرجُ منهُ المَرْضى والزَّمني والمسافرون والعبيدُ والنساءُ بالدَّليل.

قلتُ: يُشيرُ إلى مَا ثبتَ عند أبي داود عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **الْجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلاَّ أَرْبَعَةً عَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَوِ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ أَوْ مَرِيضٌ**». وطارق بن شهاب صحابي صغير رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ شَيْئًا.

وفي رواية عند البيهقي: عن جابرٍ وتميمٍ الدَّاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: زيادة « **أو مُسَافر**».

وثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ**

عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ».

وهذا حجةٌ واضحةٌ في وجوبِ الجمعةِ وفرضيَّتِها، وفي سُننِ ابنِ ماجه عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ**» إسنادُه صحيحٌ.

قوله: {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة}: والنِّداءُ للجمعةِ يكونُ إذا صعدَ الخطيبُ على المنبرِ، لا قبلَ ذلك، لِمَا روى البخاريُّ في صحيحة (٩١٢) عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ رضي الله عنه، قَالَ: «**كَانَ النِّدَاءُ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَوَّلُهُ إِذَا جَلَسَ الإِمَامُ عَلَى المِنْبَرِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه، وَكَثُرَ النَّاسُ زَادَ النِّدَاءَ الثَّالِثَ عَلَى الزَّوْرَاءِ**». قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ -يعني البخاري-: " **الزَّوْرَاءُ**: مَوْضِعٌ بِالسُّوقِ بِالْمَدِينَةِ "

قوله تعالى: {فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} اختلِفَ في معنى السَّعي هَا هُنا على ثلاثةِ أقوالٍ:

أوَّلُها: القَصْدُ. قال الحسنُ: واللهِ ما هو بسعْيٍ على الأقدامِ، ولكنَّه سعيٌ بالقلوبِ والنِّيةِ.

الثَّاني: أنَّه العملُ، كقوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، وقوله: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}، وقوله: {وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى} وهذا قولُ **الجُمهورِ**. أي فاعمَلُوا على المُضِي إلى ذكرِ اللهِ، واشتغَلُوا بأَسبابِهِ من الغُسلِ والتَّطهيرِ والتَّوجُه إليهِ.

الثَّالث: أنَّ المرادَ به السعيُ على الأقدامِ. وذلكَ فضلٌ وليسَ بشرطٍ. ففي البخاري: أنَّ أبَا عَبْس بنَ جبرٍ -واسمُهُ عبدُ الرحمنِ رضي الله عنه وكانَ مِن كبارِ الصَّحابةِ -مَشى إلى الجمعةِ راجلاً وقالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ: يَقُولُ: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» ويحتملُ ظاهرِهُ رابعًا: وهو الجَرْيُ والاشْتِدَادُ. قال ابنُ العَرِبي: وهُو الَّذي أنكرَهُ الصَّحَابَةُ الأعْلَمُونَ والفُقَهاءُ الأَقْدَمُونَ.

قلتُ: الراجحُ هو قولُ الجمهورِ، ويدخلُ تحتَهُ القولُ الثالثُ، واللهُ أعلم.

قوله تعالى: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} دليلٌ على أنَّ الجمعةَ لا تجبُ إلا بالنِّداءِ، والنِّداءُ لا يكونُ إلا بدخولِ الوقتِ، بدليل قوله ﷺ لمالِك ابْنِ الحُوَيْرِثِ رضي الله عنه وصاحِبِه: «**إِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَأَذِّنَا وَأَقِيمَا، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمَا أَكْبَرُكُمَا**». وفي البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي الجُمُعَةَ حِينَ تَمِيلُ الشَّمْسُ**». وهذا مذهبُ الجمهورِ من الخَلَفِ والسَّلَفِ، وقياسًا على صلاةِ الظُّهرِ.

قوله تعالى: {إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} أي الصَّلاة. وقيلَ: الخطبةُ والمواعظُ، قاله سعيدُ بن جبيرٍ.

قوله تعالى: {وَذَرُوا الْبَيْعَ} منعَ اللهُ عزَّ وجلَّ منه عند صلاةِ الجمعةِ، وحَرَّمَهُ في وقتها على مَن كانَ مخاطبًا بفرضِهَا. والبيعُ لا يخلو عن شراءٍ، فاكتفى بذكرِ أحدِهما، كقوله تعالى: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}. وخصَّ البيعَ؛ لأنَّه أكثرُ ما يَشتَغِلُ به أصحابُ الأسواقِ، فكلُّ أمرٍ يشغلُ عنِ الجُمعة منَ العقودِ كلِّها فهو حرامٌ شرعًا، مفسوخٌ رَدْعًا.

قوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} هذا أمرُ إباحةٍ، كقوله تعالى: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} يقول: إذا فَرَغْتُم من الصلاةِ فانتَشِروا في الأرضِ للتِّجارةِ والتَّصرفِ في حوائجِكُم. {وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} أي مِن رِزقِهِ. وكانَ عِراكُ بنُ مالكٍ إذا صلَّى الجمعةَ انصرفَ فوقفَ على بابِ المسجدِ فقالَ: **اللَّهمَّ إِني أَجَبْتُ دعوتَك، وصليتُ فريضتَك، وانتشرتُ كما أمرتَني، فارْزُقْنِي مِن فَضْلِك وأنتَ خيرُ الرَّازقين.**

وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} أي بالطَّاعة واللِّسَان، وبالشُّكرِ على ما به أنعَمَ عليكُم مِن التوفيقِ لأداءِ الفرائضِ. {لعلكم تفلحون} كَي تفلحوا.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا} في صحيحِ مسلمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَخْطُبُ قَائِمًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَجَاءَتْ عِيرٌ مِنَ الشَّامِ، فَانْفَتَلَ النَّاسُ إِلَيْهَا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْجُمُعَةِ: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [الجمعة: ١١] ". وفي رواية: فيهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: {وَتَرَكُوكَ قَائِماً} شرطٌ في قيامِ الخطيبِ على المنبرِ إذا خطبَ.

وفي صحيح مسلم عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أُمِّ الْحَكَمِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، فَقَالَ: " انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْخَبِيثِ يَخْطُبُ قَاعِدًا، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}"، وعلى هذا جمهور الفقهاءِ وأئمةِ العلماءِ.

قوله تعالى: {قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ} فيه وجهان:

أحدُهما: مَا عندَ اللهِ من ثوابِ صلاتِكم خيرٌ مَن لذَّةِ لَهْوِكم وفائدةِ تجارتِكم.

الثاني: مَا عندَ اللهِ مِن رِزقِكُم الذي قَسَمَهُ لكُم خيرٌ مما أصبْتُمُوهُ مِن لَهْوِكُم وتجارتِكم.

وقوله: {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} فَمِنْه فاطلبوا، واستعينوا بطاعتِه على نيلِ ما عندَهُ مِن خيرَي الدنيا والآخرةِ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الخامسة والعشرون

مع قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [سورة النازعات: ٣٤-٤٢].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} وهو يومُ القيامةِ، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسمِّيتْ بذلكَ لأنَّها تَطُمُّ على كلِّ أمرٍ هائلٍ مُفْظِعٍ، كما قال تعالى: {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦].

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى} أي: حينئذٍ يتذكرُ ابنُ آدمَ جميعَ عملِه خيرِهِ وشَرِّهِ، كما قال: {يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر: ٢٣]. اهـ

قال عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنتم في زمانٍ يقودُ الحقُّ الهَوَى، وسيأتي زمانٌ يقودُ الهوى الحقَّ، فنعوذُ باللهِ من ذلكَ الزَّمَان.

وقال العثيمينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: {فإذا جاءتِ الطَّامَّةُ الكُبرى} وذلك قيامُ السَّاعةِ، وسمَّاها طامةً؛ لأنَّها داهيةٌ عظيمةٌ تَطُمُّ كلَّ شيءٍ سَبَقَها. {الكُبرى} يعني أكبرَ مِن كلِّ طامَّةٍ.

قوله: {يوم يتذكَّرُ الإنسانُ ما سعَى} لهذا اليومَ الذي تكونُ فيه الطَّامَّةُ الكُبرَى، وهو اليومُ الذي يتذكَّر فيهِ الإنسانُ ما سَعى، يتذكَّرُهُ مكتوبًا عنده يقرأُهُ هو بنفْسِهِ، قالَ اللهُ تعالى: {ونخرِج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا*اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك

حسيبًا} [الإسراء: ١٣، ١٤]. إذا قرأهُ تذكَّر ما سعى أي ما عَمِلَ، أمَّا اليومُ فإنَّنا قد نَسيْنَا ما عمِلَنَا، عمِلنَا أعمالًا كثيرةً منها الصالحُ، ومنها اللغوُ، ومنها السَّيِّءُ، لكنْ كلَّ هذا نَنْسَاهُ، وفي يومِ القيامةِ يعرضُ علينا هَذا في كتابٍ ويقالُ: اقرأْ كتابَكَ أنت بنفسِكَ {كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا} [الإسراء: ١٤]. فحينئذٍ يتذكَّرُ ما سَعَى {ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً} [النبأ: ٤٠]. {وبُرِّزت الجحيم لمن يرى} {بُرِّزت} أُظهِرتْ تجيء تقادُ بسبعينَ ألفَ زِمَام، كلُّ زمامٍ فيهِ سبعونَ ألفَ مَلَكٌ يجرونها، إذا أُلْقي منها الظالمونَ مكانًا ضَيِّقًا مُقرَّنينَ دعوا هنالك ثُبورًا. تأتي والعياذُ باللهِ لمن يَرى ويُبْصِر فتنخلعُ القلوبُ، ويشيبُ المولودُ ولهذا قال: {فأما من طغى* وآثر الحياة الدنيا} هذانِ وصفانِ هما وَصْفَا أهلِ النَّار، **الطغيان**: وهو مجاوزةُ الحدِّ، **وإيثارُ الدنيا على الآخرة** بتقديمها على الآخرةِ، وكونُها أكبرُ هَمِّ الإنسانِ، والطغيان مجاوزةُ الحدِّ، وحدُّ الإنسانِ مذكورٌ في قوله تعالى: {وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦]. فمنْ جاوزَ حدَّهُ ولم يعبد اللهَ فهذا هو الطَّاغِي؛ لأنَّه تجاوز الحَدَّ، أنتَ مخلوقٌ لا لتَأكُل وتتنعم وتتمتعُ كمَا تتمتعُ الأنعامُ، أنتَ مخلوقٌ لعبادةِ اللهِ، فاعبدِ اللهَ عزَّ وجل، فإنْ لم تفعلْ فقد طغيتَ هذا هو الطغيانُ ألَّا يُقومَ الإنسانُ بعبادةِ اللهِ.

{وآثر الحياة الدنيا} هما متلازمانِ فإنَّ الطَّاغي عن عبادةِ اللهِ مُؤْثِرٌ للحياةِ الدنيا؛ لأنَّه يتعلَّلُ بِها عَن طاعةِ الله، ويتلَهَّى بها عَن طاعةِ اللهِ، إذا أذَّن الفجرَ آثرَ النَّومَ على الصَّلاةِ، إذا قيل له: اُذْكُرْ اللهَ، آثرَ اللغوَ على ذكرِ اللهِ، وهكذا...

قوله: {فإنَّ الجحيمَ هي المأوى} أي هي مأواهُ، **والمأوى** هو: المرجِعُ والمقَرُّ، وبِئْسَ المقرُّ مقرُّ جهنَّمُ -أعاذنا اللهُ منها-.

وقوله: {وأمَّا من خاف مقام ربِّه} يعني خافَ القيام بين يديه؛ لأنَّ الإنسانَ يوم القيامة سوفَ يُقَرِّرُهُ اللهُ عزَّ وجل بذنوبِه ويقولُ: عملتَ كذا، عملتَ كذا، عملتَ كذا، كَما جاءَ في الصحيحِ[1] ، فإذا أقرَّ، قال اللهُ له: « **سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»، هذا الذي خافَ هذا المقام، {ونهى النَّفسَ عن الهوى} أي عَن هواهَا، والنَّفس أمَّارةٌ بالسُّوء لا تأمرُ إلا بالشَّرِّ، ولكنْ هناك نفسٌ أُخْرى تُقابلُهَا وهي النَّفسُ المطمئنة؛ وللإنسانِ ثلاثُ نفوس: **مطمئنةٌ**، و**أمَّارةٌ**، **ولَوَّامَةٌ**، وكلُّها في القرآنِ، أمَّا المطمئنَّة ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفجر:٢٧-٣٠].

وأمَّا الأمَّارة بالسُّوء ففي قوله تعالى: {وما أبريء نفسي إن النفس لأمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربي} [يوسف: **٥٣**]. وأمَّا اللَّوامةُ ففي قوله تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة} [القيامة: **١، ٢**]. والإنسانُ يحسُّ بنفسِهِ بهذهِ الأنفسِ؛ يرى في نفسِهِ أحيانًا نَزْعَةَ خيرٍ يحبُّ الخيرَ يفعلُه، هذه هي النَّفْسُ المطمئنَّة، ويَرى أحيانًا في نفسِهِ نزعةَ شَرٍّ يفعله، هذه نفسٌ أمارةٌ بالسوء، تأتي بعد ذلك النفسُ اللَّوَّامة التي تلومُهُ على ما فَعَلَ، فَتَجِدُهُ يَنْدمُ علَى ما فَعَل من المعصية، أو لَوَّامة أُخرى تلُومه على ما فَعَلَ مِنَ الخير،

---

[1] البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فإنَّ مِن النَّاسِ مَن قَدْ يلومُ نفسَه على فعلِ الخيرِ وعلى مُصاحبةِ أهلِ الخيرِ ويقولُ: كيفَ أصاحبُ هؤلاءِ الذينَ صَدُّونِي عَن حياتي، عن شهواتي، عن لَهْوي... وما أشبه ذلك؟ فاللَّوامة نفسٌ تلومُ الأمارةَ بالسوء مرةً، وتلومُ المطمئنَّةَ مرةً أخرى، فهي في الحقيقةِ نفسٌ بين نَفْسَين، تلومُ النَّفسَ الأمارةَ بالسُّوءِ إذا فعلتِ السُّوء، وتُنَدِّمُ الإنسانَ، وقد تلومُ النفسَ المطمئنَّة إذا فعلتِ الخيرَ.

وقوله: {فإنَّ الجنَّة هي المأوى} الجنَّة هي دارُ النَّعيم التي أعدَّها اللهُ -عزَّ وجل- لأوليائه فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، قالَ الله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ١٧﴾ [سورة السجدة:١٧]. هكذا جاء في القرآنِ، وجاء في الحديثِ القُدُسِي: « **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** »[1]. اهـ

فانْظرْ إلى سعيِكَ أيُّها المسلمُ مِن الآن، مِن الآن، هل يُؤَهِّلُك لدخولِ الجنةِ أمْ لدخولِ النَّارِ؟ قبلَ أنْ تتذكَّرَ يومَ القيامةِ ولا ينفعُ التَّذكُّرُ، وتَتَحسرُ ولا ينفعُ التَّحسرُ، وتندمُ ولا ينفعُ النَّدمُ، وها أنتَ في شهرٍ مباركٍ أبوابُ الجنَّة فيهِ مفتحةٌ، وأبوابُ النَّار فيهِ مغلقةٌ، ومردةُ الجنِّ مقيدةٌ، فأَحْسِنْ سعيكَ واثْبُتْ عليه، ثَبَّتَنا اللهُ وإيَّاكم على الخَير، فكلُّ النَّاسِ يَسعَى، ولكن هناك مَن يَسعَى في فكاك نفسِه من عذابِ اللهِ وسخطه، وهُناكَ مَن يُورِدُهَا مواردَ الهلاكِ والعَطَبِ، ونسألُ الله العافيةَ والسَّلامةَ، والعَونَ وحُسْنَ الخَاتمةِ.

---

[1] رواه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم(٢٨٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الوقفة السادسة والعشرون: مع سورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [سورة القدر: ١-٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالى: (في ليلة القدر) قال مجاهد: في ليلةِ الحُكْم.

(وما أدراك ما ليلة القدر) قال: ليلةُ الحُكْم.

وَالمَعْنَى: ليلةُ التَّقديرِ، سمِّيت بذلكَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُقَدِّرُ فيهَا ما يشاءُ مِن أمرِهِ، إلى مِثلِهَا مِن السَنَة القابلَة، مِن أمرِ الموتِ والأَجَلِ والرِّزقِ وغيرِه.

قلت: ويشهدُ لذلكَ قولُ اللهِ تعالى عن هذهِ الليلةِ في سورةِ الدُّخانِ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [سورة الدخان: ٤].

وقيل: إنما سُمِّيتْ بذلك لعظمِها وقدرِهَا وشرفِهَا، مِن قولِهم: لفلانٍ قدْرٌ، أيْ شرفٌ ومنزلةٌ. قاله الزهريُّ وغيرُه.

وقيل: سُمِّيتْ بذلك لأنَّ للطاعاتِ فيها قدْرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلاً. اهـ بتصرف.

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يخبرُ اللهُ تعالى أنَّه أنزلَ القرآنَ ليلةَ القَدْرِ، وهي الليلةُ المباركةُ التي قال الله، عز وجل: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} [الدخان: ٣] وهي ليلةُ القَدْر، وهي من شهرِ رمضانَ، كما قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥].

قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرُه: أنزلَ اللهُ القرآنَ جملةً واحدةً من اللوحِ المحفوظِ إلى بيتِ العِزّةِ مِن السماءِ الدنيا، ثُمَّ نَزَلَ مفصَّلاً بحسبِ الوقائعِ في ثلاثٍ وعشرينَ سَنَةً على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ

[وقوله] جلَّ وعَلاَ: {وما أدراك ما ليلة القَدْرِ} هذه الجملةُ بهذه الصيغةِ يستفادُ منها التعظيمُ والتفخيمُ، وهي مُطَّرِدَةٌ في القرآنِ الكريمِ، قال الله تعالى: {وما أدراك ما يوم الدين* ثم ما أدراك ما يوم الدين} [الانفطار: ١٧، ١٨]. وقال تعالى: {الحاقة* ما الحاقة* وما أدراك ما الحاقة} [الحاقة: ١ . ٣]. {القارعة* ما القارعة* وما أدراك ما القارعة} فهذه الصيغةُ تعني التفخيمَ والتعظيمَ، فهُنا قال: {وما أدراك ما ليلةُ القدر} أي ما أعْلَمَكَ ليلةَ القَدْرِ وشأنَها وشرفَها وعِظَمَها، ثمَّ بَيَّنَ هذا بقوله: {ليلة القدر خيرٌ من ألفِ شهر} وهذه الجملةُ كالجوابِ للاستفهامِ الذي سبقَهَا، وهو قوله: {وما أدراك ما ليلة القدر} الجواب: {ليلةُ القدر خير من ألف شهر} أي مِن ألفِ شهرٍ ليسَ فيهَا ليلةُ القَدْرِ، والمرادُ بالخيريَّةِ هُنا: ثوابُ العملِ فيها، وما ينزِّلُ اللهُ تعالى فيها من الخيرِ والبركة على هذه الأُمَّةِ، ولذلك كان مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبِه.(عثيمين).

قوله: {تَنزلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} قوله عز وجل: {تَنزلُ الْمَلائِكَةُ}، {وَالرُّوحُ} يعني جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ معهُم، {فيهَا} أي في ليلةِ القَدْرِ، {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} أي بكلِّ أمرٍ مِن الخيرِ والبركةِ، كقولِهِ: {يحفظونه من أمر الله} (الرعد-١١) أي بأمرِ الله.

وقوله: {سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} قوله: {سَلامٌ} قال عطاءٌ: يريدُ: سَلامٌ على أولياءِ اللهِ وأهلِ طاعتِهِ.

وقال الشَّعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو تسليمُ الملائكةِ ليلةَ القَدْر على أهلِ المساجدِ من حينِ تغيبُ الشَّمسِ إلى أنْ يطلعَ الفجرُ.

وقال الكَلْبِي: الملائكةُ ينزلونَ فِيها كلَّما لَقَوا مؤمنًا أو مؤمنةً سلَّمُوا عليهِ مِن ربِّه حتَّى يطلعَ الفَجرُ. (البغوي)

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: {سَلَامٌ هِيَ} الجملةُ هنا مكونةٌ من مبتدإٍ وخبرٍ، والخبرُ فيها مقدَّمٌ، والتقدير: «**هِيَ سَلَامٌ**» أي هذه الليلةُ سلامٌ، ووصَفَها اللهُ تعالى بالسَّلام، لكثرةِ من يَسْلَمُ فيها مِن الآثامِ وعقوباتِها، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ**»، ومغفرةُ الذنوبِ لا شَكَّ أنَّها سَلامةٌ مِن وبائِها وعقوباتِها.

قوله: {حتى مطلع الفجر} أي تتنزَّلُ الملائكةُ في هذه الليلةِ حتَّى مطلعَ الفجر، أي إلى مطلعِ الفجرِ، وإذا طَلعَ الفجرُ انتهتْ ليلةُ القَدْر... وبهذه المُناسبةِ أودُّ أنْ أُنَبِّهَ إلى غلطِ كثيرٍ من الناسِ في الوقتِ الحاضرِ حيثُ يتحرونَ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ في أداءِ العمرةِ، فإنَّك في ليلةِ سبعٍ وعشرين تَجِدُ المسجدَ الحرامَ قَدْ غُصَّ بالناس وكَثُروا، وتخصيصُ ليلةِ سبعٍ وعشرينَ بالعمرةِ من البِدعِ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يخصِّصْهَا بعمرةٍ في فعلِهِ، ولم يخصِّصْها أي ليلةُ سبعٍ وعشرين بعمرةٍ في قولِه، فَلَمْ يعتمرْ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ مِن رمضانَ، معَ أنَّه في عامِ الفتحِ ليلةَ سبعٍ وعشرينَ مِن رمضانَ كانَ في مكةَ، ولم يَعتمرْ، ولم يَقُلْ للأُمَّة: تحرَّوا ليلةَ سبعٍ وعشرينَ بالعمرةِ، وإنَّما أمَرَ أنْ نتحرَّى ليلةَ سبعٍ وعشرينَ بالقِيامِ فيها لا بالعمرةِ، وبهِ يتبيَّنُ خطأُ كثيرٍ مِن النَّاسِ، وبهِ أيضًا يتبيَّن أنَّ الناسَ ربَّما يأخذونَ دينَهم كابرًا عن كابرٍ، على غيرِ أساسٍ من الشَّرعِ، فَاحذرْ أن تعبدَ اللهَ إلَّا على

بصيرةٍ، بدليلٍ من كتابِ اللهِ، أو سُّنةِ رسولِهِ ﷺ أو عَمَلِ الخلفاءِ الراشدينَ الذين أُمِرْنَا باتِّباعِ سنَّتِهِم.

وفي هذه السورة الكريمة فضائل متعددة لليلة القدر:

الفضيلة الأولى: أنَّ الله أنزلَ فيها القرآنَ الذي به هدايةُ البَشَّر وسعادتُهم في الدُّنيا والآخرةِ.

الفضيلة الثانية: ما يدلُّ عليه الاستفهامُ مِن التفخيمِ والتعظيمِ في قوله: {وما أدراك ما ليلة القدر}.

الفضيلة الثالثة: أنَّها خيرٌ من ألفِ شهرٍ.

الفضيلة الرابعة: أنَّ الملائكةَ تتنزَّلُ فيهَا، وهمْ لا ينزِلونَ إلَّا بالخيرِ والبركةِ والرحمةِ.

الفضيلة الخامسة: أنَّها سَلاَمٌ، لكثرة السَّلامَةَ فيها من العقابِ والعذابِ بما يقومُ بهِ العبدُ مِن طاعةِ اللهِ عزَّ وجل.

الفضيلة السادسة: أنَّ الله أنزلَ في فضلِها سورةً كاملةً تُتْلَى إلى يومِ القيامةِ.

ومن فضائل ليلةِ القَدْرِ، ما ثبت في الصحيحين مِن حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**.

فقوله: «**إيمانًا واحتسابًا**» يعني إيمانًا باللهِ وبِمَا أعدَّ اللهُ مِن الثَّوابِ للقائمينَ فيهَا، واحتسابًا للأجرِ وطلبَ الثوابِ، وهذا حاصلٌ لمن عَلِمَ بها ومَن لم يعْلمْ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يشترط العِلْمَ بها في حصولِ هذا الأجرِ. وبهذا انتهى الكلامُ على سُورةِ القَدْرِ. اهـ

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصل الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة السابعة والعشرون: مع سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١-٣].

هذه السورةُ مع قِصَرِها إلَّا أنَّها تَحمِلُ معانٍ كثيرةً، ولهذا قالَ عنهَا الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَو تَدَبَّرَ الناسُ هذه السُّورةَ لَكَفَتْهُم، أو لَوَسِعَتْهُم»[1].

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وذَكَرَ الطَبراني من طريقِ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ حِصْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [أَبِي مَدِينَةَ الدَّارِمِيِّ]، قَالَ: كَانَ الرَّجُلانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ: وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، ثُمَّ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ»**.

والعَصْرُ: هو الزَّمانُ الذي تقعُ فيه حركاتُ بني آدمَ، مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فأَقْسَمَ تعالى بذلكَ (أي بالعصرِ) على أنَّ الإنسان لَفي خُسرٍ، أي: في خسارةٍ وهلاكٍ، {إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} فاستثنى مِن جنسِ الإنسانِ عنِ الخسرانِ: الذينَ آمنوا بقلوبِهم، وعملوا الصَّالحاتِ بجوارحِهم.

{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} وهو أداءُ الطَّاعاتِ، وتركُ المحرماتِ، {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} على المصائبِ والأقدارِ، وأذَى من يُؤذِي ممَّن يأمرونَهُ بالمعروفِ وينهونَه عنِ المنْكرِ.

---

[1] ذكره ابن كثير في تفسيره عند آية البقرة:(...فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين).

وقال العلامةُ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: يقولُ الله عزَّ وجلَّ: {والعصر * إن الإنسان لفي خسر} أَقْسَمَ اللهُ تعالى بالعصرِ، والعصرُ قيل: إنَّ المرادَ به آخرُ النَّهار، لأنَّ آخرَ النَّهارِ أَفْضلُهُ، وصلاةُ العصرِ تُسَمَّى الصَّلاة الوُسطَى، أي: الفُضْلَى كَما سمَّاها النَّبيُّ ﷺ بذلِك.

وقِيلَ: إنَّ العَصرَ هو الزَّمَان. وهذا هو الأصحُّ. أَقْسَمَ اللهُ به لِمَا يقعُ فيهِ مِن اختلافِ الأحوالِ، وتقلباتِ الأمورِ، ومداولةِ الأيامِ بينَ النَّاسِ، وغَيرِ ذلكَ ممَّا هو مُشاهدٌ في الحاضِرِ، ومتحدثٌ عنه في الغائبِ.

فالعَصْرُ: هو الزَّمان الذي يعيشُه الخَلقُ، وتختلفُ أوقاتُه شدةً ورخاءً، وحربًا وسِلمًا، وصِحةً ومرضًا، وعملاً صالحًا، وعملاً سيئًا، إلى غيرِ ذلك ممَّا هو معلومٌ للجميعِ.

أقْسَم اللهُ به على قوله: {إنَّ الإنسان لفي خسرٍ}، والإنسانُ هنا عامٌ، لأنَّ المرادَ به الجِنسُ، وعلامةُ الإنسانِ الذي يرادُ به العمومُ أنْ يحلَّ مَحلَ «أل» كلمةُ «كُل» فهُنا لو قيل: كلُّ إنسانٍ في خسرٍ لكانَ هذا هو المَعْنَى.

ومعنى الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ أَقْسَمَ قسمًا على حالِ الإنسانِ أنَّه في خُسرٍ أي: في خسرانٍ ونُقصانٍ في كلِّ أحوالِهِ، في الدنيا وفي الآخرةِ، إلا مَن استثنى اللهُ عزَّ وجلَّ. وهذه الجملةُ مؤكَّدَةٌ بثلاثِ مؤكداتٍ، الأوَّلُ: القسم، والثَّاني: (إنّ) والثَّالث: (اللام) وأتى بقولِهِ: {لفي خسر} ليكونَ أبلغُ مِن قوله: (لخَاسِرٌ) وذلك أنَّ «في» للظرفيةِ، فكأنَّ الإنسانَ منغمسٌ في الخسرِ، والخسرانُ محيطٌ به مِن كلِّ جانبٍ. {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}. استثنى اللهُ سبحانه وتعالى هؤلاء المُتَّصِفِين بهذه الصفاتِ الأربعِ: الصفةُ الأولى: الإيمانُ الذي لا يخالِجُهُ شَكٌّ ولا تَرَددٌ بِما

بيَّنَهُ الرَّسولُ ﷺ حينَ سألَهُ جبريلُ عنِ الإيمانِ قالَ: «**أنْ تؤمِنَ باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخِرِ، وتُؤمنَ بالقَدرِ خيرِهِ وَشرِّهِ**»، وشرْحُ هذا الحديث يطولُ وتكلَّمنا عليه في مواطنَ كثيرةٍ، فالذينَ آمنوا بهذهِ الأصولِ السِّتة هُم المؤمنونَ، ولكنْ يجبُ أنْ يكونَ إيمانًا لا شَكَّ معَهُ ولا تردُّد. بمعنى: أنَّك تؤمن بهذِه الأشياءَ وكأنَّك تراهَا رأيَ العَينِ. والنَّاسُ في هذا المقامِ ثلاثةُ أقسامٍ:

القسمُ الأوَّل: مؤمنٌ خالصُ الإيمان؛ إيمانًا لا شكَّ فيه ولا تردد.

والقسمُ الثَّاني: كَافرٌ جاحدٌ منكرٌ.

والقسمُ الثَّالث: متردِّدٌ. والنَّاجي من هؤلاء، القسم الأول الذي يؤمن إيمانًا لا تردد فيه.

أما قوله: {وعملوا الصالحات} فمعناه: أنَّهم قاموا بالأعمالِ الصالحة: من صلاةٍ، وزكاةٍ، وصيامٍ، وحجٍ، وبرٍّ للوالدينِ، وصلةِ الأرحام، وغيرِ ذلك فلمْ يقتصروا على مجردِ ما في القلبِ بل عملوا وأنتجوا، و{الصَّالحات} هي التي اشتملت على شيئين:

الأول: الإخلاصُ للهِ عزَّ وجل.

والثاني: المتابعة للرَّسولِ عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {وتواصوا بالحق} أي: صار بعضُهم يوصِّي بعضًا بالحقِّ. والحقُّ: هو الشَّرع. يعني كلَّ واحدٍ منهم يوصِّي الآخر إذا رآهُ مفرِّطًا في واجبٍ أوصاهُ، وقال: يا أَخي قُمْ بالواجبِ، إذا رآهُ فاعلاً لمحرمٍ أوْصَاهُ، وقال: يا أخي اجتنبْ الحرامَ، فهمْ لم يقتصرُوا على نفعِ أنفسِهم، بل نفعُوا أنفسَهم وغيرَهُم، {وتواصوا بالصبر} أي: يُوصِّي بَعضُهم

بَعضًا بالصَّبرِ، **والصَّبرُ**: حبسُ النفسِ عمَّا لا ينبغي فعلُهُ، وقَسَّمَه أهلُ العلمِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأوَّلُ: صبرٌ على طاعةِ اللهِ.

القسمُ الثَّاني: صبرٌ عن محارمِ اللهِ.

القسم الثالث: صبرٌ على أقدارِ اللهِ.

فكلُّ إنسانٍ عاقلٍ يعرف أنَّه في خُسرٍ إلا إذا اتَّصفَ بهذه الصفاتِ الأربعِ، فإنَّه سوفَ يحاولُ بقدرِ ما يستطيعُ أنْ يتَّصفَ بهذه الصِّفاتِ الأربعِ، وإلى تخليصِ نفسِهِ من الخُسرانِ. نسألُ اللهَ أنْ يجعلنَا مِن الرَّابحينَ الموفَّقِينَ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قدير. اهـ بتصرف.

الوقفة الثامنة والعشرون: مع سورة الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص: ١-٤].

وقد ذُكِرَ في سببِ نزولِها، ما رواهُ الإمامُ أحمدُ عن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ المشركينَ قالوا للنَّبيِّ ﷺ: يا محمدُ، انسبْ لنا ربَّك، فأنزلَ اللهُ: " **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُو لَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ".

- **وهذه السُّورة فيها صِفَةُ الرَّحمنِ جَلَّ جَلالُهُ مَن أَحبَّهَا أَحبَّهُ اللهُ**، لما في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**».

- **وَحُبُّ هذه السُّورةِ مِن أسبابِ دخولِ الجنَّةِ**: لِمَا ثَبَتَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلاَةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ: بِـ (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**) حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى، فَإِمَّا تَقْرَأُ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا، وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ

مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: «**يَا فُلاَنُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ**» فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، فَقَالَ: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ**». رواه البخاري مُعَلَّقًا ووصَلَهُ الترمذي من طريق البخاري.

وفي مُسْنَدِ أَحْمَدَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحبُّ هذه السورة: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " فقال رسول الله ﷺ: "**حبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ**".

- أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ: {**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**} [الإخلاص: ١] يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**». رواه البخاري.

- ومعنى يَتَقَالُّهَا: أي يَرَاها قَلِيلةً.

وفي مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»، فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، ثُمَّ دَخَلَ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: إِنِّي أُرَى هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**».

وفي مسلمٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟**» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»، وبنحوه في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

- **أَنَّها مِنْ أَسْبَابِ الاسْتِشْفَاءِ**: لما جاء في البخاري عَنْ عَائِشَةَ: " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ".

- **أَنَّ فِيهَا اسْمَ اللهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ** : ففي مسند أحمد عن مَالِكٌ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ بُرَيْدَةُ عِشَاءً فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا صَوْتُ رَجُلٍ يَقْرَأُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تُرَاهُ مُرَائِيًا**» فَأَسْكَتَ بُرَيْدَةُ فَإِذَا رَجُلٌ يَدْعُو فَقَالَ:« اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**».

قوله: (قل هو الله أحد): أي الذي لا نظيرَ له ولا وزيرَ، ولا نديدَ ولا شَبيهَ، ولا عَديلَ.

فائدة: لا يُطلَق هذا اللفظ [**أَي أَحَدٌ**] على أحدٍ في الإثبات إلا على اللهِ-عزّ وجل- لأنَّهُ الكاملُ في جميعِ صفاتِه وأفعالِهِ.

وقوله: {اللَّهُ الصَّمَدُ} قال عكرمةُ، عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: يعني الذي يَصمُدُ الخلائقُ إليهِ في حوائِجِهم ومسائِلِهم.

وقيل: **هُو السَّيد الذي قَدْ كَمُلَ في سُؤدُدِه.**

وقيل: **هُو البَاقي بعد خَلقِهِ، الحيُّ القيوم الذَّي لا زوالَ لَهُ.**

وقيل: **هُو الذي لمْ يلدْ ولمْ يُولدْ.** فجعلَ ما بعده تفسيرًا له، وهو قوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}.

وقيل: **المُصْمَتُ الذي لا جوفَ لَه.**

وقيل: **هُو الذي لا يأكلُ الطَّعامَ، ولا يَشربُ الشَّرابَ.**

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وقدْ قالَ الحافظ أبو القاسمِ الطبراني في كتابِ السُّنَّة له، بعدْ إيرادِهِ كثيرًا مِن هذهِ الأقوالِ في تفسيرِ "الصَّمد": وكلُّ هذه صحيحةٌ، وهي صفاتُ ربِّنَا، -عزَّ وجلَّ- وهو الذي يُصْمَدُ إليه في الحَوائجِ، وهو الذي قَدِ انْتَهى سُؤدُدُه، وهو الصَّمدُ الذي لَا جوفَ لَهُ، ولا يأكلُ ولا يشربُ، وهو الباقِي بعدَ خلقِه. وقال البيهقيُّ نحوَ ذلك.

قال العلامةُ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: **فيكونُ المعنى الجامعُ للصَّمدِ هُو: الكاملُ في صفاتِهِ الذي افتقرتْ إليه جميعُ مخلوقاتِه.**

وقوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} أي: ليس له ولدٌ ولا والدٌ ولا صاحبةٌ.

وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} تنزيهٌ له -تعالى- عن الشبيهِ والنظيرِ والمُماثلِ.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمدٍ ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة التاسعة والعشرون: مع سورة الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [سورة الفلق: ١-٥].

رَوى أبو داودَ في سننه (١٤٦٥) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالأَبْوَاءِ إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِـ(أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ(أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) وَيَقُولُ: «**يَا عُقْبَةُ تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا**». قَالَ وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلاَةِ. (أي قَرَأهُما في الصَّلاةِ وكانَ إِمَامَهُم ﷺ).

وعند النسائي (٥٤٢٨) وغيره عن عَبْدِ اللَّهِ بن خبيب الجهني رضي الله عنه، قَالَ: أَصَابَنَا طَشٌّ وَظُلْمَةٌ، فَانْتَظَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ بِنَا، ثُمَّ ذَكَرَ كَلاَمًا مَعْنَاهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ بِنَا، فَقَالَ: «قُلْ» فَقُلْتُ: مَا أَقُولُ؟، قَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي، وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلاَثًا يَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ».

○ ومعنى طَشٌّ: هو المطرُ الخفيفُ الضعيفُ.

وهذه السُّورة رُقيةٌ: ففي مسند أحمد (٢٦١٨٩) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا مَرِضَ قَرَأَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَيَنْفُثُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا ثَقُلَ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِمَا وَأَمْسَحُ بِيَمِينِهِ الْتِمَاسَ بَرَكَتِهَا.

○ ثَقُلَ: أي اشْتَدَّ مرضُه ﷺ، حتَّى ما استطاعَ أنْ يَنْفُثَ ويمْسحَ على نفسِهِ ﷺ.

وعند الترمذي(٢٠٥٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا**».

وقوله: (قل أعوذ برب الفلق): الفلقُ: الصُّبحُ، وهي كقولِهِ تعَالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} [الأنعام: ٩٦].

وقيل: الفلقُ: الخَلْق، وقيل: بيتٌ في جهنم، وقيل: من أسماءِ جهنم، وقيل: وادٍ في جهنم، وقيل: سجنٌ في جهنم.

قال ابنُ جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: والصَّواب القولُ الأولُ، أنَّه فلقُ الصُّبحِ. وهذا هُو الصحيحُ، وهو اختيارُ البُخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ، في صحيحِهِ.

وقوله: {مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ} أي: مِن شرِّ جميعِ المخلوقاتِ. وقال ثابتٌ البُنَانِي، والحسنُ البَصْري: جهنمُ وإبليسُ وذريتُه ممَّا خَلَق.

{وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} قال مجاهد: غاسقُ الليلُ إذا وقبَ غُروبُ الشَّمس. وقيل: إنَّه الليلُ إذا أقبلَ بِظَلامِهِ.

وقوله: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} قال مجاهد: هنَّ السَّواحرُ إذا رَقَينَ وَنَفَثْنَ في العُقَدِ. (ابن كثير).

قال العلاَّمة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وذَكَرَ اللهُ النفاثات دون النفاثين؛ لأنَّ الغالب أنَّ الذي يستعمل هذا النَّوع من السِّحرِ هنَّ النِّساء.

ويحتملُ أنْ يقالَ: إنَّ النَّفاثاتِ: يعني الأنفُسَ النَّفاثاتِ، فيشملُ الرِّجالَ والنِّسَاءَ.

وقوله: {ومِن شرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ} **الحاسدُ**: هو الذي يكرهُ نعمةَ اللهِ على غيرِه، فَتَجِدُهُ يضيقُ ذرعًا إذا أنْعَمَ اللهُ على هذا الإنسانِ بمالٍ، أو جاهٍ، أو علمٍ، أو غيرِ ذلك.

والحسّادُ نوعان:

- نوعٌ يحسدُ ويَكْرَهُ في قلبهِ نعمةَ اللهِ على غيرِه، لكنْ لا يتعرضُ للمحسودِ بشيءٍ، تَجِدُهُ مهمومًا مغمومًا مِن نعمِ اللهِ على غيرِه، لكنَّه لا يعْتدِي على صَاحِبِه.

- والشَّرُّ والبَلاء إنَّما هو بالحاسدِ إذا حَسَدَ.

ولهذا قال: {إِذَا حَسَدَ}. **ومِنْ حَسَدِ الحَاسِدِ**: العَين التي تصيبُ المُعان، يكونُ هذا الرَّجل عندَهُ كراهةً لنعمِ اللهِ على الغيرِ فإذا أحسَّ بنفسِهِ أنَّ اللهَ أنعمَ على فلانٍ بنعمةٍ خَرجَ من نفسِه الخبيثةِ (مَعنًى) لا نستطيعُ أنْ نَّصِفَهُ؛ لأنَّه مجهولٌ، فيصيبُ بالعَينِ، ومَن تَسلَّطَ عَليهِ أَحيانًا يموتُ، وأحيانًا يمرضُ، وأحيانَا يُجَنُّ، حتى الحَاسدُ يتَسلَّطُ على الحديدِ فيوقفُ اشتغالَهُ، ورُبَّما يصيبُ السَّيارةَ بالعينِ وتَنْكسرُ أو تتعَطَّلُ، ورُبَّما يصيبُ رفَّاعةَ الماءِ، أو حرَّاثةَ الأرضِ، فالعينُ حقٌّ تصيبُ بإذنِ اللهِ -عزّ وجلَّ-[1] .

وذَكَرَ اللهُ- عزَّ وجلَّ- **الغاسقَ إذا وَقَب، والنَّفاثاتِ في العُقَد، والحاسدَ إذا حَسَد؛** لأنَّ البلاءَ كلَّه في هذه الأحوالِ الثلاثة يكونُ خَفِيًّا.

اللَّهمَّ اكفنا شرَّ الأشرارِ، وكيدَ الفجَّار، وطوارقَ الليلِ والنَّهارِ، إلا طارقًا يَطْرُقُ بخيرٍ، واكفِنَا بحلالِك عن حرامِكَ، وبطاعتِكَ عن معصيتِك، وبفضلِكَ عمَّن سِواكَ.

❁❁❁

[1] ولأخينا الشيخ خليل العديني -حفظه الله- كتاب طيب جدًّا في هذا الموضوع، اسمه:(علام يقتل أحدكم أخاه، العين حق)، ننصح بقراءته.

الوقفة الثلاثون: مع سورة الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [سورة الناس:١-٦].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: هذهِ ثلاثُ صفاتٌ مِن صفاتِ الربِّ -عزَّ وجلَّ-:

الرُّبوبية، والمُلْك، والإلهية: فهو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ وإلهُهُ، فجميعُ الأشياءِ مخلوقةٌ لَه، مملوكةٌ عبيدٌ له، فَأُمِرَ المستعيذُ أنْ يتعوذَ بالمتَّصفِ بهذه الصفاتِ، مِن شَرِّ الوسواسِ الخَنَّاس، وهو الشَّيطانُ المُوَكَّل بالإنسانِ، فإنَّه ما مِن أحدٍ مِن بني آدمَ إلَّا ولَهُ قرينٌ يُزَيِّنُ له الفواحشَ، ولا يألُوهُ جهدًا في الخَبَالِ، والمعصومُ من عَصَم اللهُ، وقدْ ثبتَ في الصحيحِ [يعني في مُسلِم ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ]: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ**» قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلاَ يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»، وثبتَ في الصَّحيحِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قصةِ زيارةِ صفيةَ النَّبيَّ ﷺ وهو معتكفٌ، وخُروجُهُ مَعَهَا ليلاً لَيَرُدَهَا إلى مَنْزِلِهَا، فَلَقِيَهُ رَجُلاَنِ مِن الأَنْصَارِ، فلما رَأَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْرَعَا، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»، فَقَالاَ: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا**». [رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم(٢١٧٥)]. **وفي روايةٍ**: « **يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**».

وعَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ عَمَّنْ كَانَ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَهُ عَلَى حِمَارٍ فَعَثَرَ الْحِمَارُ فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ تَعِسَ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ صَرَعْتُهُ بِقُوَّتِي فَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللَّهِ تَصَاغَرَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ حَتَّى يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ**».

تَفرَّد بِهِ أحمدُ[1]، وإسْنادُه جَيدُ قويٌّ، وفيهِ دلالةٌ على أنَّ القلبَ مَتى ذَكرَ اللهَ تَصَاغَرَ الشَّيطانُ وغُلِبَ، وإنْ لم يذكرِ اللهَ تَعَاظَمَ وغَلَبَ. اهـ

قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: {قل أعوذ بربِّ النَّاس}: وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو ربُّ النَّاس وغيرِهِم، ربُّ النَّاسِ، وربُّ الملائكةِ، وربُّ الجِنِّ، ورَبُّ السَّمَواتِ، ورَبُّ الأَرْضِ، وربُّ الشَّمسِ، وربُّ القَمَرِ، وربُّ كلِّ شيءٍ، لَكِنْ للمُنَاسَبةِ خَصَّ النَّاسَ.

{مَلكِ النَّاس} أي المَلِكُ الذي لَه السلطةُ العُليَا في النَّاسِ، والتصرفُ الكاملُ، هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

{إله النَّاس} أيْ مأْلُوهُهُم ومعبودُهُم، فالمعبودُ حقًّا الذي تَأْلَهُهُ القُلوبُ وتُحبُّه وتُعَظِّمُه هو اللهُ عزَّ وجل.

{مِنْ شَرِّ الوسواس الخناس* الذي يوسوس في صدور النَّاس} قال العلماءُ: إنَّها مصدرٌ يُرادُ به اسمُ الفاعلِ أي: المُوَسْوِسُ. **والوَسْوسةُ هي**: ما يُلقَى في القلبِ مِن الأفكارِ والأوهامِ والتخيلاتِ التي لا حقيقةَ لهَا.

{الخَنَّاس} الذي يخنسُ وينهزمُ ويولي ويُدْبِرُ عندَ ذكرِ اللهِ –عزَّ وجَلَّ– وهو الشيطانُ.

---

[1] بل رواه أبو داود (٤٩٨٤)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٢)، والبيهقي (٤٨١٩)، وغيرهم.

ولهذا إذا نُودِيَ للصلاةِ أدْبَرَ الشيطانُ لَه ضُراطٌ حتَّى لا يَسْمعَ التَّأْذينَ، فإذا قُضِيَ النِّداءُ أقبلَ حتَّى إذا ثُوِّبَ للصَّلاةِ [أي أقيمتْ] أَدْبَرَ، حتَّى إذا قُضِيَ التثويبُ أقبلَ حتى يخطرُ بينَ المرءِ ونفسِهِ، يقولُ: اُذْكُر كَذا، اُذْكُر كَذا، لِمَا لم يكنْ يُذْكُرُ، حتَّى يَظَلُّ الرَّجلُ لا يدري كَم صَلَّى، ولهذا جاءَ في الأثرِ: «**إذا تَغَوَّلَتِ الغِيلاَن فبادروا بالأذَانِ**»[1]، والغَيْلاَنُ: هي الشياطينُ التي تتخَيَّلُ للمسافرِ في سفرِهِ، وكَأَنَّها أشياءٌ مَهُولةٌ، أو عدوٌّ، أو ما أشْبهَ ذلك فإذا كَبَّرَ الإنسانُ انصرفتْ.

{من الجِنَّةِ والنَّاس} أي أنَّ الوَسْاوسُ تكونُ مِنَ الجِنِّ، وتكونُ من بني آدمَ، أمَّا وَسْوسةُ الجنِّ فظاهرٌ؛ لأنَّه يجري مِن ابنِ آدمَ مَجْرى الدمِ، وأمَّا وَسْوسةُ بني آدمَ فمَا أكثرَ الَّذين يأتونَ إلى الإنسانِ يوحونَ إليه بالشَّرِّ، ويُزَيِّنونَهُ في قلبِهِ حتَّى يأخذَ هذا الكلام بِلُبِّهِ وينصرفُ إليه.

قال قتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ مِنَ الإنسِ شَياطينٌ، وإنَّ مِنَ الجنِّ شياطينٌ، فنعوذُ باللهِ مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ.

وقيل: يعني يدخلُ في الجِنِّي كَما يدخلُ في الإنْسِي، ويُوسوسُ للجِنِّي كَما يُوسوسُ للإنْسي، قالَه الكَلْبي، وقيل: (والنَّاس) أي أنفسُ النَّاسِ. يعني الأمارةَ بالسُّوءِ. اهـ

❁❁❁

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وكتب: أبو أنس منصور بن محمد الزكري

في الرابع عشر من شهر جمادى الأولى لعام ١٤٤٤هـ

في مسجد السُّنة بالنزيهة -جبل حبشي – تعز - اليمن.

---

[1] ضعيف، في الضعيفة للألباني (١١٤٠).

فهرس الموضوعات

مقدمة الشيخ ٣
مقدمة المؤلف ٤
الوقفة الأولى مع سورة الفاتحة ٦
الوقفة الثانية ١٠
الوقفة الثالثة ١٤
الوقفة الرابعة ١٨
الوقفة الخامسة ٢٢
الوقفة السادسة ٢٦
الوقفة السابعة ٣٠
الوقفة الثامنة ٣٤
الوقفة التاسعة ٣٨
الوقفة العاشرة ٤٢
الوقفة الحادية عشرة ٤٦
الوقفة الثانية عشرة ٥٠
الوقفة الثالثة عشرة ٥٣
الوقفة الرابعة عشرة ٥٦
الوقفة الخامسة عشرة ٥٩
الوقفة السادسة عشرة ٦٣
الوقفة السابعة عشرة ٦٨
الوقفة الثامنة عشرة ٧١
الوقفة التاسعة عشرة ٧٥
الوقفة العشرون ٧٩

الوقفة الحادية والعشرون ٨٣
الوقفة الثانية العشرون ٨٧
الوقفة الثالثة والعشرون ٩٠
الوقفة الرابعة والعشرون ٩٤
الوقفة الخامسة والعشرون ٩٨
الوقفة السادسة والعشرون مع سورة القدر ١٠٢
الوقفة السابعة والعشرون مع سورة العصر ١٠٦
الوقفة الثامنة والعشرون مع سورة الإخلاص ١١٠
الوقفة التاسعة والعشرون مع سورة الفلق ١١٤
الوقفة الثلاثون مع سورة الناس ١١٧
فهرس الموضوعات ١٢٠